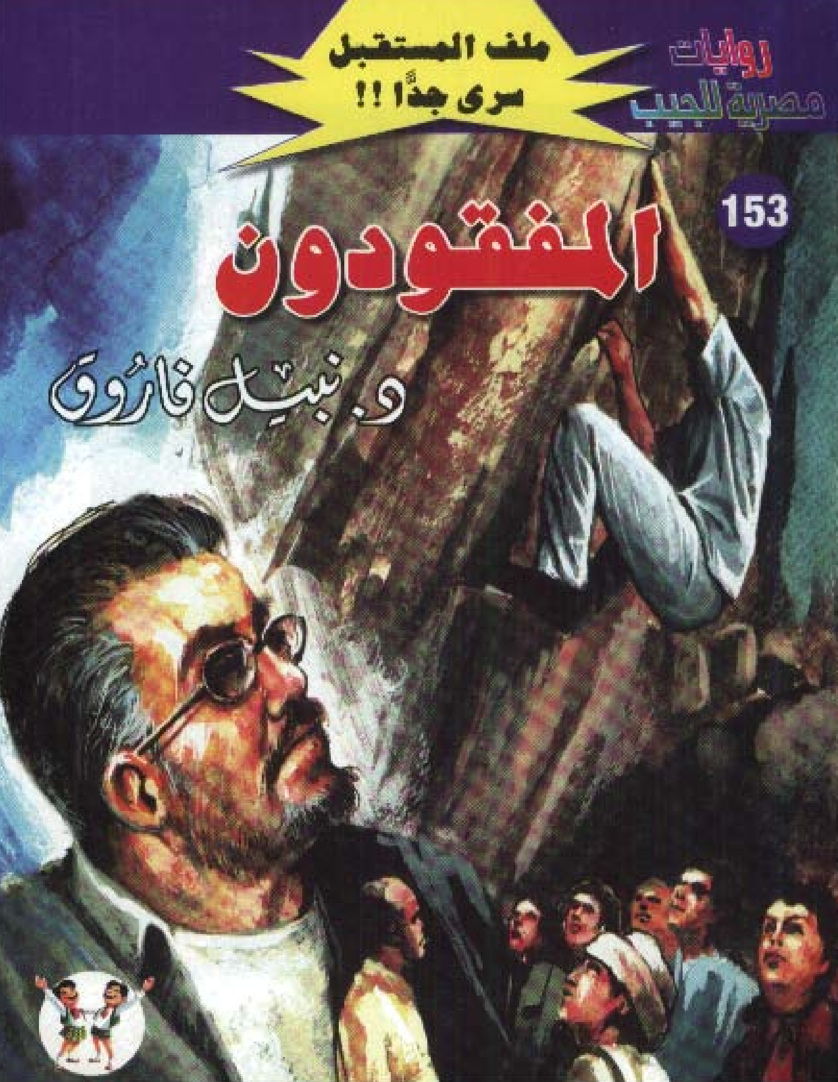

روايات مصرية للجيب
ملف المستقبل
سري جدًّا !!
153
المفقودون
د. نبيل فاروق

فى مكان ما من أرض (مصر) ، فى حقبة ما من حقب المستقبل ، توجد القيادة العليا للمخابرات العلمية المصرية ، يدور العمل فيها فى هدوء تام ، وسرِّية مطلقة ، من أجل حماية التقدُّم العلمى فى (مصر) ، ومن أجل الحفاظ على الأسرار العلمية ، التى هى المقياس الحقيقى لتقدم الأمم .. ومن أجل هذه الأهداف ، يعمل رجل المخابرات العلمية (نور الدين محمود) ، على رأس فريق نادر ، تم اختياره فى عناية تامة ودقة بالغة ..

فريق من طراز خاص ، يواجه مخاطر حقبة جديدة ، ويتحدَّى الغموض العلمى ، والألغاز المستقبلية ..

إنها نظرة أمل لجيل قادم ، ولمحة من عالم الغد ، وصفحة جديدة من الملف الخالد ..

ملف المستقبل .

د. نبيل فاروق

١ ـ الكهف ..

ساد صمت رهيب ، تلك المنطقة الجبلية ، فى جنوب سيناء ، فى ساعات الفجر الأولى ، فى ذلك الصباح ، وراحت الشمس تستيقظ ، وتنهض من خلف قمم الجبال ، وأشعتها الذهبية تتسلل بين الصخور ، وتوقظ كائنات الصحراء من سُباتها العميق ، و ...

وفجأة ، انطلق هدير قوى ، يشق سكون المنطقة ..

ومن خلف قمة جبلية عالية ، برزت حوّامة كبيرة ، تحمل على جانبها شعار مركز الأبحاث ، التابع للمخابرات العلمية المصرية .

ومع الهدير المباغت ، انتفضت كائنات الصحراء فى توتر ، وأسرعت تحتمى ببعض الصخور والأحجار ، والحوامة تهبط فى واد صخرى ، يتوسط ثلاثة جبال ضخمة ، وتتوقف مروحتها أو تكاد ، فى نفس اللحظة التى وثب فيها الدكتور (أنور شعبان) ، عالم الأثريات الشهير ، وأشار إلى أحد الجبال ، قائلاً فى حماس شديد :

ـ هناك .

تبعه ـ فى رصانة مع حماسة ـ اثنان من مديرى هيئة الآثار ، مع أستاذة جيولوجية ، وتبادل الثلاثة نظرة ، حملت من الشفقة أكثر مما حملته من ضجر وضيق ، قبل أن تقول الدكتورة (نهى) ، أستاذة الجيولوجيا[*] ، فى لهجة حملت شيئًا من التوتر :

ـ ما زلت عاجزة عن تصديق ما أخبرتنا به يا دكتور (أنور) .

قال الدكتور (أنور) فى حزم :

ـ دقائق وستتأكدين من الأمر .. ستتأكدون جميعًا .

نطقها ، وهو يشير إلى نقطة ، على ارتفاع متوسط نسبيًا ، من أحد الجبال الثلاثة ، قبل أن يندفع ليتسلق الجبل نفسه ، فى نشاط وحماس جعلا السيد (مكرم) يقول فى ضجر :

ـ لم نعد شبابًا ، لمثل هذا النشاط .

هزت الدكتورة (نهى) رأسها ، قائلة :

(*) الجيولوجيا : علم يبحث فى أصل الأرض ، وتاريخها التركيبى والطبيعى ، وكذلك المواد التى تتكون منها ، وجميع التغيرات التى وقعت أثناء تكوينها ، وتطورها ، وتنقسم الجيولوجيا إلى عدة علوم فرعية ، مثل علم الكون ، والحفريات ، والجيومورفولوجيا ، والفيزيوجرافيا وغيرها .

ـ إنه يبدو شديد الثقة ، على الرغم من استحالة ما أشار إليه .

قالتها ، وتنهد الثلاثة ، ثم بدءوا يتسلقون الجبل بدورهم ، باستخدام معدات شديدة التطور ..

وفى منتصف المسافة تقريبًا ، هتف السيد (ياسر) فى حنق :

ـ كان ينبغى أن يرسلوا فريق عمل .. لا مسئولين مثلنا .

أجابته الدكتورة (نهى) ، فى حزم صارم ، يشفُّ عن طبيعتها :

ـ أنت تعلم أن هذا مستحيل .

هتف الدكتور (مكرم) ، وهو يلهث بشدة :

ـ ولِمَ لا .. أنا واثق من أنهم كانوا سينجزون العمل أفضل منا .

أجابته بنفس اللهجة :

ـ ولكن ما زال هناك احتمال لصحة ما يرويه الدكتور (أنور) .

هز (ياسر) رأسه فى قوة وحدة ، وهو يواصل التسلق ، قائلاً :

ـ مستحيل !

توقفت الدكتورة (نهى) ؛ لتلتقط أنفاسها ، وتقول :

ـ المسئولون افترضوا صحة ما رواه ، بنسبة خمسة فى المائة فحسب ، ولكن لو صحت هذه النسبة ، فسيعنى هذا أننا أمام واحد من أضخم الكشوف عبر التاريخ المدوّن .

غمغم (مكرم) ، وهو يجفف عرقه :

ـ لو صح هذا ، فسأتساءل عما إذا كان ينتمى حقًّا إلى تاريخنا .

رمقته بنظرة متوترة ، ثم عاودت التسلق ، قائلة :

ـ دقائق قليلة ، وسنرى .

واصل الثلاثة تسلقهم ، فى محاولة للحاق بالدكتور (أنور) ، الذى بلغ الموضع الذى ينشده تقريبًا ، وهو يهتف :

ـ أسرعوا .. المشهد يبدو رائعًا ، فى ساعات الشروق الأولى .

بدا عليهم التعب ، وحملت لهجتهم لمحة عصبية ، و(ياسر) يقول لاهثًا :

ـ إننا فى القرن الحادى والعشرين ، فلماذا اكتفى برواية شفهية ؟! لِمَ لَمْ يوثق روايته تلك بالصور الرقمية ؟!

ترددت الدكتورة (نهى) لحظة ، قبل أن تجيب ، فى شىء من الحذر :

ـ لقد فعل .

توقف الرجلان دفعة واحدة ، وأطلّت من عيونهما دهشة عارمة ، قبل أن يهتف (مكرم) فى حدة :

ـ لماذا نتجشم كل هذا العناء إذن .

انعقد حاجباها ، وهى تجيب :

ـ لقد فقد مستنداته .

غمغم (ياسر) ، متشككًا ومتذمرًا :

- فقدها ؟! ماذا يعنى هذا العبث ؟!

أجابته فى عصبية :

- لهذا قصة طويلة .

وصمتت لحظة ، ثم أضافت فى حدة :

- ومعقدة .

كان من الواضح أنها لا تنوى الخوض فى التفاصيل ، مما جعل الرجلين يطبقان شفاههما ، ويواصلان التسلق خلفها ، والدكتور (أنور) يهتف فى حماس شديد ، بعد أن بلغ مبتغاه :

- أسرعوا .. المشهد سيبدو لكم مذهلاً .

غمغم (ياسر) فى حنق :

- أتعشم هذا .

بلغ الثلاثة تلك البقعة ، التى يقف عندها الدكتور (أنور) ، وقد وصل إلى ذروة حماسه ، مشيرًا إلى كهف يختفى خلف الصخور الضخمة ، وقائلاً :

- هذا هو مدخلنا ، إلى أعظم اكتشافات القرن .

وعلى الرغم من التعب الشديد ، والإرهاق الذى يسيطر على كل ذرة فى كيانهم ، اتسعت عيون ثلاثتهم فى دهشة بالغة ، وهم يحدقون فى مدخل الكهف ، وقد ارتفعت نسبة الخمسة فى المائة ، فى أعماقهم ، إلى ثلاثة أضعافها ..

وبقفزة واحدة .

فعلى الرغم من اتساع المدخل ، وضوء الشمس ، الذى يمتد داخله إلى مسافة عميقة ، كان محجوبًا من زوايا الرؤية المباشرة ، بكتل صخرية ضخمة ..

وبكل حماسة ، هتف الدكتور (أنور) :

- حتى التصوير الجوى لم يرصده مرة واحدة ، فقد تم حفره ، بحيث لا تمكن رؤيته إلا فى هذه الساعة من الصباح فقط ، وبعدها تخفيه ظلال الصخور المحيطة به عن الأنظار .

ولم يحاول أحدهم التعليق على عبارته هذه المرة .

كان قوله يوحى بأن ذلك الكهف ليس تكوينًا طبيعيًا ، نحتته عوامل التعرية المختلفة ، وإنما هو مصنوع ..

مصنوع بأياد قوية ..

دقيقة ..

وعاقلة ..

وعلى الرغم من هذا ، فلم يعترض أحد ..

هذا لأن مدخل الكهف نفسه ، كان يبعث رهبة عجيبة ، فى قلوب كل من يتطلعون إليه ..

كان أشبه بفكى وحش هائل ، تحدق عيناه الصخريتان فى القادم ، وكأنما تحذره من الاقتراب .

أو حتى مجرد التفكير فى هذا ..

أما الأنياب الصخرية ، التى تبرز من الفكين العلويين ، وتمثّل جانبى الكهف ، فقد بدت متحفزة لالتهام كل معتد ..

وكل مغامر ..

وحده الدكتور (أنور) بدا وكأنه لا يبالى بهذا ، وهو يلوّح بيده ، قائلاً بنفس حماسه :

ـ هذه المرة سنوثّق كل شىء .. سنلتقط مئات الصور لمدخل الكهف ، وكل ما سترونه بداخله .

قرن قوله هذا بتشغيل آلة التصوير المتحركة الرقمية بالفعل ، فغمغم (مكرم) ، وقد أصابه الاضطراب ، من فكرة دخول ذلك الكهف :

ـ وكيف .. كيف عثرت على .. على هذا الشىء ؟!

تردّد قبل نطق الكلمة الأخيرة ، وكأنما عجز عن وصف ما يراه أمامه بمجرّد كهف ..

ولكن الدكتور (أنور) لم ينتبه إلى اضطرابه ..

ولم ينتبه حتى إلى تلك النظرة المبهورة ، فى عيون الآخرين ..

لقد بدا جزلاً سعيدًا ؛ لأنه على وشك إثبات روايته ، وهو يميل نحو (مكرم) ، قائلاً :

ـ بالمصادفة البحتة .

نطقها ، وأطلق ضحكة انفعالية قصيرة ، قبل أن يقول فى لهفة واضحة :

ـ ولكن تقريرى سيصف كل هذا .. هيا .. أأنتم مستعدون ؟!

تبادل الثلاثة نظرة شديدة التوتر ، قبل أن تغمغم الدكتورة (نهى) فى حذر :

ـ ليس بهذه السرعة :

كان من الواضح أنها تقاوم انفعالاً جارفًا فى أعماقها ، وهى تلتقط حقيبة ظهرها ، وتفتحها ؛ لتلتقط منها بعض أدواتها ، مستطردة :

ـ هناك ما ينبغى عمله هنا أولاً .

بدا الدكتور (أنور) متبرمًا ، وهو يتطلّع إلى ساعته ، وإلى قرص الشمس ، الذى أوشك أن يتجاوز زاوية الرؤية ، فغمغمت هى فى صرامة صنعتها عصبيتها :

ـ أريد التأكد من أمر ما أولاً .

كشطت قطعة صغيرة من جدار المدخل الصخرى ، وقطعة من الصخور المحيطة به ، وأجرت بعض التفاعلات الكيماوية السريعة ، واستخدمت مجهرًا صغيرًا ، لفحص بعض الحصى ، ثم لجأت إلى الكمبيوتر اليدوى الصغير ، لإدراج معادلاتها ونتائجها ، قبل أن تغمغم ، وحاجباها يرتفعان بكل الدهشة :

ـ ربّاه !

ابتسم الدكتور (أنور) فى زهو ، وكأنما تسعده دهشتها ، فى حين ضاعفت كلمتها تلك التوتر ، الذى يتصاعد بالفعل ، فى عروق الرجلين الآخرين ، والذى عبَّر (ياسر) عنه ، بقوله :

ـ ماذا وجدت بالضبط ؟!

هزّت رأسها ، وكأنما تعجز عن تصديق نتائجها ، وهى تقول :

ـ صخور الكهف ، لا تنتمى إلى الصخور المحيطة بها .

تمتم (مكرم) فى ذهول :

ـ وماذا يعنيه هذا ؟!

ألقى السؤال ، على الرغم من معرفته ـ بحكم عمله ـ لإجابتـه ، وأجابتـه الدكتـورة (نهـى) ، وهـى تـدرك الحقيقة نفسها :

ـ إنه ليس تكوينًا طبيعيًا بالتأكيد .

تطلّعت مرة أخرى إلى مدخل الكهف ، قبل أن تضيف :

ـ لقد صنعه كيان ما .

وصمتت لحظة ، ثم أكملت بصوت مرتجف :

ـ أو شىء ما .

سرت ارتجافة فى جسدى الرجلين ، مع كلمتها الأخيرة ، فى حين هتف الدكتور (أنور) ، فى حماس أكثر :

ـ أرأيتم ؟!

ثم حمل آلة التصوير ، وعبر مدخل الكهف مباشرة ، وهو يتابع بنفس الحماس :

ـ هيا .. الوقت يمضى فى سرعة .

تردّد الثلاثة أمام مدخل الكهف الرهيب ، وتطلّعوا إلى ذلك المحفور فى صخوره ، التى لا تنتمى إلى صخور المنطقة ، قبل أن يلتقط كل منهم نفسًا عميقًا ، ويتبعون الدكتور (أنور) بأقدام مرتجفة ..

أما عـالم الأثريـات الشـهير ، فقـد بـدا وكـأن حماسـه يتضاعف مع كل خطـوة يخطوهـا ، داخـل ذلـك الكهـف الغامض ، وهو يقول :

ـ من الواضح أنهـا حضـارة ، لـم تسجلها أيـة كتـب تاريخ أو علوم من قبل .. حضـارة لا يعلـم العـالم عنهـا شيئًا ، وكأنما فنت عن آخرها ، ولم تمتد منها حضارات أخرى ، تحمل لنا ولو أسطورة عنها .

غمغم (ياسر) :

ـ لا تقل إنها (أطلانطيس) .. لقـد سئمت أخبـار الكشـف عنها ، فى عدة مواضع متباعدة .

ضحك الدكتور (أنور) ، وهو يقول :

ـ إنها ليست كذلك بالتأكيد .

ثم توقف ، والتفت إلى ثلاثتهم ، مضيفًا :

ـ إنها حضارة أقرب إلينا .

توقَّفت الدكتورة (نهى) دفعة واحدة ، مع قوله هذا ، وقالت فى عصبية ، تضاعفت مع دخولها الكهف :

ـ ماذا تعنى ؟!

هزَّ رأسه فى حماس ، وعاود السير فى أعماق الكهف ومنحنياته ، وهو يجيب :

ـ سترون كل شىء بأنفسكم .. هناك أشياء سوف تثير ذهولكم حتمًا .

سألته الدكتورة (نهى) مرة أخرى ، بعصبية متزايدة :

ـ إنك لم تجب سؤالى .

كانوا يسيرون فى ممرات معقدة ، داخل ذلك الكهف ، الذى بدا وكأنه يتسع ، كلما توغَّلوا داخله ، وجهاز الرصد ،

الذى يحمله الدكتور (أنور) يسجل مسارهم ، حتى لا يضلوا الطريق ، وسط ما بدا أشبه بالمتاهة ، وهو يقول :

ـ كانت لديهم أشياء متطوِّرة ، تشبه إلى حد ما ما توصلنا إليه ، فى نهاية القرن العشرين ، ولكنها مغرقة فى القدم ، فى الوقت ذاته .

توقف (مكرم) دفعة واحدة ، وهو يقول فى عصبية :

ـ الإسرائيليون .

توقف الكل مع كلمته ، وسأله الدكتور (أنور) فى دهشة :

ـ وما شأنهم بهذا ؟!

وغمغمت الدكتورة (نهى) :

ـ مجرد ذكر اسمهم يثير توترى .

لوَّح (مكرم) بذراعه ، وهو يقول فى توتر :

- لقد احتلوا (سيناء)، فى الفترة من نكسة يونيو ١٩٦٧م، وحتى انتصارنا عليهم، فى أكتوبر ١٩٧٣م، وربما هم من ..

قاطعه الدكتور (أنور) فى حزم، وهو يعاود السير :

- مستحيل !!

هتف (ياسر) فى حدة :

- ولماذا مستحيل ؟! إنه يبدو أقرب إلى المنطق، من قصة الحضارة القديمة هذه .

هزّ الدكتور (أنور) رأسه فى حزم، وقال :

- عندما ترون ما أتحدث عنه، ستدركون ما أعنيه فورًا .. لقد قلت ؛ إنها تشبه تقنياتنا، فى نهايات القرن العشرين، إلا أنها لا تماثلها، بأى حال من الأحوال، مما يوحى بأنها قد أنتجت بوساطة، عقول متطوِّرة .

ثم توقَّف، والتفت إليهم مرة أخرى، مضيفًا :

- ولكن عبر سلسلة مختلفة من التطوّر .

انعقد حاجبا الدكتورة (نهى) فى شدة، وتضاعف توترها ألف مرّة، وهى تفكر فى الاحتمالات، التى تشير إليها تلك العبارة الأخيرة ..

أما الدكتور (أنور)، فقد توقَّف عندما بدا أشبه بمدخل كهف آخر فرعى، وهو يبتسم، قائلاً بحماس بلغ ذروته :

- والآن استعدوا للمفاجأة .

قالها، ودلف بمصباحه المتوهّج إلى ذلك الكهف الفرعى ..

وبنفس التردُّد، لحق به المسئولون الثلاثة ..

وأضاء مصباحه ذلك الكهف الفرعى ..

واتسعت عيون الثلاثة عن آخرها، فى ذهول بلغ منتهاه ..

أو فاق هذا ..

كثيرًا ..

* * *

كان المفترض أن تستغرق تلك الرحلة الاستكشافية ثلاث ساعات فحسب ، على أكثر تقدير ، وفقًا للتقرير الذى قدمه الدكتور (أنور) إلى السلطات الرسمية ..

ولكن طيار الحوَّامة انتظر ..

وانتظر ..

وانتظر ..

مرت الساعات الثلاث ..

ثم ساعة رابعة ..

وخامسة ..

وسادسة ..

ولأن أوامر الطيار كانت تحتم العودة قبل غروب الشمس ، مهما كانت الأسباب ، فقد التقط جهاز الاتصال فائق التردُّد ، وضغط زره ، قائلاً :

ـ من النسر إلى المستكشفين .. النهار قصير فى هذه المنطقة وأيًّا كانت النتائج ، التى توصلتم إليها ، لابد لنا من الرحيل ، خلال نصف ساعة على الأكثر ..

كان الجهاز الذى يحمله من طراز شديد التطوّر ، قادر على اختراق الصخور ، مهما بلغت كتلتها وكثافتها ، لتصل موجاته إلى أعمق أعماق الجبال ..

وكان المفترض أن يتلقى جوابًا من بعثة الاستكشاف السرية الصغيرة ..

ولكن هذا لم يحدث ..

لذا فقد كرَّر النداء مرة ثانية ..

وثالثة ..

ورابعة ..

وفى المرة الخامسة ، راجع كل أزرار الجهاز ، وتأكَّد من أنه يعمل بكفاءة ، ثم قال ، وقد شمله توتر شديد :

ـ ماذا أصابكم ؟! أين أنتم ؟! أين ؟!

ولما لم يتلق جوابًا ، كان عليه أن ينتقل فورًا إلى خطة الطوارئ ..

وبينما يعد جهازه ؛ لإرسال إشارة النجدة والاستغاثة، وهو يدير عينيه فى الجبال المحيطة به، والتى بدت، فى تلك الساعة، أشبه بعمالقة من صخر، تتطلع إليه فى تحفز، سطع فجأة ذلك الضوء ..

ضوء أشبه بوميض مصباح تصوير سريع، استغرق أقل من ثانية واحدة ..

ولكنه أضاء المنطقة كلها ..

أضاءها بلون رهيب ..

مخيف ..

بلون أحمر دموى ..

ثم عاد الظلام يخيم على المنطقة كلها مرة أخرى، أو كاد ..

واتسعت عينا الطيَّار عن آخرهما، وأسرع يرسل إشارة الاستغاثة، وكل ذرة فى كيانه تدرك أنه أمام لغز ..

لغز رهيب ..

للغاية .

* * *

٢ـ بلا أثر ..

« لم نعثر لهم على أدنى أثر .. »

نطق القائد الأعلى للمخابرات العلمية العبارة، فى توتر ملحوظ، على الرغم من تماسكه، وأشار بيده إلى (نور)، الذى يقف أمامه منتبهًا، قبل أن يضيف :

ـ المسئولون أرسلوا فرقة كوماندوز متخصصة، فى البحث عن الرهائن وإنقاذهم، ولديها خبرة كبيرة، فى العمل فى المناطق الجبلية، وأمكنهم بالفعل العثور على ذلك الكهف، الذى أشار إليه الدكتور (أنور) فى تقريره، وفتشوه شبرًا شبرًا، إلا أنهم لم يعثروا على أى من الأربعة .

بدأ عقل (نور) يدرس الموقف، ويسترجع كل ما سمعه، فى نفس الوقت الذى تساءل فيه لسانه :

ـ ألم يعثروا على مخرج آخر للكهف ؟!

هزَّ القائد الأعلى رأسه نفيًا، وهو يجيب :

ـ مطلقًا .. لقد تمت الاستعانة بثلاثة من خبراء الكهوف ، مع أجهزة شديدة التطوّر ، فى مرحلة تالية ، ولكنهم لم يعثروا على أية مخارج ، واضحة أو مستترة ، أو حتى آبار عميقة ، يمكن أن يسقطوا فيها .

وصمت لحظة ، قبل أن يضيف :

ـ لم يعثروا على أى شىء .

تساءل (نور) فى اهتمام :

ـ وماذا عن تلك الأجهزة والتقنيات ، التى أشار إليها الأثرى ؟!

هزّ القائد الأعلى رأسه نفيًا فى بطء ، وقال :

ـ لم يكن الكهف يحوى شيئًا .. على الإطلاق .

أضاف (نور) فى حزم :

ـ عندما تم فحصه .

تطلّع إليه القائد الأعلى بنظرة متسائلة ، فتابع بنفس ذلك الحزم الواثق :

ـ ولكننا لا ندرى ماذا كان عليه ذلك الكهف ، قبل أن تختفى البعثة الاستكشافية داخله .

تطلّع إليه القائد الأعلى مرة أخرى فى صمت ، قبل أن يتراجع فى مقعده ، ويسأله فى اهتمام :

ـ من الواضح أنك قد بدأت فى تكوين نظرية بالفعل يا (نور) .

هزّ (نور) رأسه نفيًا ، وقال :

ـ لم يحن الوقت لهذا بعد يا سيّدى ؛ فالمعلومات المتاحة ، حتى هذه اللحظة ، لا تكفى لوضع أية نظرية .

صمت لحظة ، وكأنه انتهى من قوله إلا أنّه أضاف فى سرعة :

ـ ولكنها تكفى لطرح عدة تساؤلات .

شبّك القائد الأعلى أصابع كفيه أمام وجهه ، وهو يقول :

ـ مثل ماذا ؟!

أشار (نور) بسبّابته ، مجيبًا :

- ذلك الوميض الأحمر، الذى رصده طيّار الحوّامة، وسجّله فى تقريره، انبعث من مصدر ما داخل ذلك الكهف حتمًا، وخلو المكان من أية أشياء، قادرة على إطلاقه، تجعلنا نتساءل عن مصدره، ثم إن الدكتور (نور) عالم أثريات شهير، ويتمتع بسمعة علمية ممتازة، ومصداقية لا تتطرق إليها الشبهات، وعندما يصف ما رآه بأنه ينتمى إلى سلسلة أخرى أو مختلفة من التطوّر، فهذا يعنى كل حرف منه حتمًا، ويدفعنا إلى التساؤل عما يمكن أن يكون قد رآه، وتسبّب فى اختفاء البعثة الاستكشافية السرية المفقودة .. ثم إنه هناك تساؤل رئيسى، ألا وهو متى اختفت البعثة بالضبط، ما دامت لم تستجب لنداء الطيار، منذ أول اتصال، وحتى حدوث ذلك الوميض .

هزّ القائد الأعلى رأسه متفهمًا، ومشاركًا فى كل ما طرحه (نور) من تساؤلات، قبل أن يعتدل، قائلاً فى حزم :

- لهذا اتخذ سيادة رئيس الجمهورية قراره، بأن تتولى وفريقك هذه المهمة، التى تندرج تحت بند السرية المطلقة أيها المقدم .

ونهض من خلف مكتبه، واكتسب صوته حزمًا أكثر، وهو يضيف :

- أنتم الآن أملنا، بعد الله - سبحانه وتعالى - فى حل هذا اللغز الجديد .

وانعقد حاجبا (نور) أكثر وأكثر ..

فمنذ اللحظة، تبدأ واحدة من أصعب المهام فى حياته ..

مهمة البحث عن أعضاء فريق الاستكشاف السرى .. المفقودين ..

* * *

بمنتهى الدهشة، راح أطباء المستشفى العسكرى يطالعون نتائج الفحوص الطبية الأخيرة، التى أجريت لأفراد فريق (نور)، قبل أن يهتف أحدهم، فى ذهول بدا واضحًا، فى كل حرف من كلماته :

- مستحيل ! هذا يبدو أشبه بالمعجزة .

ابتسم الدكتور (محمد حجازى)، كبير الأطباء الشرعيين، وهو يقول فى رصانة بسيطة :

ـ لا معجزات فى العلم .

وضع الطبيب الفحوص أمامه، للمرة الخامسة، وهو يقول :

ـ ألم تر كيف شفيت كل الإصابات، والتأمت كل الجروح، دون أن تترك خلفها أية آثار أو مضاعفات ؟! هل رأيت شيئاً شبيهاً من قبل ؟!

هزّ الدكتور (حجازى) كتفيه، وهو يقول :

ـ الجنود قبل الحرب العالمية الثانية(*)، كانوا يلقون حتفهم فى ميدان المعركة، بسبب تلوث إصاباتهم، ثم لم يعد هذا يحدث، بعد كشف (البنسلين)(**) .

(*) الحرب العالمية الثانية : (١٩٣٩ ـ ١٩٤٥)، بدأتها (ألمانيا) النازية، وانتهت بإلقاء قنبلتى (هيروشيما) و (ناجازاكى) على اليابان .

(**) البنسلين : عامل قوى، من عوامل العلاج بالكيماويات، ويتم استخراجه من مزارع العفن الأخضر (بنسيليوم نوتاتم)، كشفه العالم (ألكسندر فليمنج) عام ١٩٢٨ م، ولم يتم إنتاجه على نطاق واسع، حتى الحرب العالمية الثانية .

غمغم الطبيب فى حذر :

ـ أتعنى أن ...

لم يتم تساؤله، إلا أن الدكتور (حجازى) فهم ما يعنيه، وأجاب فى هدوء :

ـ نعم .. لا ريب فى أن ذلك الفريق الطبى، الذى جاء من كوكب (البديل)، بعد استدعاء (سويز)، يمتلك تقنيات مذهلة .. خاصة وأنهم يسبقوننا فى السلم الحضارى بآلاف السنين(*) .

حدّق الطبيب فيه بدهشة عاجزة عن النطق، فى حين هزّ آخر رأسه فى عصبية، قائلاً :

ـ هذا لا يشعرنى بالارتياح، لو أنك تتصوّر هذا .

وافقه ثالث، وهو يقول :

ـ أظننى أشاركك قلقك يا صديقى ؛ فلقد أشرفوا على علاج الفريق، دون أن يشرحوا لنا كيف فعلوا هذا .. إنهم لم يهتموا حتى بأن نعرف .

غمغم الطبيب الأول :

ـ أو أنهم تعمدوا هذا .

(*) راجع قصة (الفيروس) .. المغامرة رقم (١٥٢) .

نقل الدكتور (حجازى) بصره بين المتحدثين ، قبل أن يتراجع فى مقعده ، قائلاً :

ـ ربما يدركون صعوبة فهمنا لتقنياتهم .

قال الطبيب الثانى فى حدة :

ـ إننا محترفون .

هزّ الدكتور (حجازى) كتفيه ، قائلاً :

ـ هذا لن يصنع فارقًا .

تطلّعوا إليه بنظرة غاضبة ، فتابع موضحًا :

ـ العلم ليس محطات منفصلة ، وإنما هو سلسلة متصلة من الكشوف والابتكارات والتطويرات والتحسينات ، وخيوطه كلها تتداخل ، على نحو شديد التعقيد ، بحيث لا يمكنك أن تنتقل من الدراجة إلى مكوك الفضاء ، دون المرور باختراع المحركات النفاثة ، والمواد المقاومة للحرارة ، وأجهزة الكمبيوتر وغيرها ، والفارق بيننا وبين بدلائنا ، يشبه الفارق بين الدراجة ومكوك الفضاء ، ونجاحهم فى عبور آلاف السنوات الضوئية بقفزة واحدة ، يجعل هذا واضحًا ، فكيف تتصوّر

أن يشرحوا لك كيفية قيادة المكوك ، وأنت تجهل كل ما تم ، حتى توصلوا إليه ؟!

كان جوابه مقنعًا للغاية ، حتى إنهم تبادلوا نظرة صامتة ، قبل أن يغمغم أحدهم ، دون أن يفقد عصبيته :

ـ ربما كنت على حق .

ثم شدّ قامته ، وأضاف ، محاولاً استعادة حزمه :

ـ والآن ، دعونا نتجاوز هذه المناقشة ، ونؤجلها إلى ما بعد لقائنا مع أفراد الفريق .. أريد أن أتأكّد من تأثير هذا الشفاء السريع ، على مقاييسهم النفسية .

ابتسم الدكتور (حجازى) ، وهو ينهض مع فريق الأطباء ؛ للذهاب إلى قسم الطوارئ ، الذى يضم فريق (نور) ، وغمغم :

ـ اطمئن .. إنهم أقوياء .

رمقه رئيس الفريق الطبى بنظرة مستنكرة ، وهو يقول فى صرامة ، أراد بها تعويض توتره السابق :

ـ إنهم مجرد بشر .

لم يحاول الدكتور (حجازى) التعقيب على عبارته ، وهو يسير مع الفريق ، عبر ممرات المستشفى ، حتى بلغوا ذلك القسم ، حيث أشار رئيس الفريق إلى رجل الأمن ، الذى يقف أمامه ، قائلاً :

ـ كيف حال من بالداخل ؟!

شد الحارس قامته ، وهو يجيب فى حزم عسكرى .

ـ لا يوجد أحد بالداخل يا سيِّدى .

انعقد حاجبا الدكتور (حجازى) فى توتر ، فى حين هتف رئيس الأطباء ، فى دهشة مستنكرة :

ـ أى قول أحمق هذا ؟! أين يمكنهم الذهاب ؟!

أجابه الحارس ، دون أية انفعالات :

ـ لست أدرى أين ذهبوا يا سيِّدى ، ولكن المقدَّم (نور) كان هنا ، واصطحبهم جميعًا معه ، وكانوا جميعًا فى حالة توتر ملحوظة .

حدَّق فيه رئيس الأطباء ، قائلاً فى دهشة :

ـ المقدَّم (نور) ؟! ماذا يريد منهم ؟!

هزَّ الحارس رأسه ، بنفس الوجه العسكرى الجامد ، وهو يقول :

ـ ليس من حقى أن ألقى مثل هذا السؤال ، على ضابط فى جهاز المخابرات العلمية يا سيِّدى .

احتقن وجه رئيس الأطباء ، وهو يقول فى حدة :

ـ يا للعبث ! يا للعبث !

أما الدكتور (حجازى) ، فقد ازداد انعقاد حاجبيه ، وهو يتطلَّع إلى الحارس ، وعشرات التساؤلات تتفجَّر ، فى أعمق أعماق عقله العلمى ..

وفى هذه المرة لم يبتسم ..

لم يبتسم أبدًا ..

★ ★ ★

فى حرفية عالية ، هبطت حوَّامة المخابرات العلمية ، فى وسط ذلك الوادى الصخرى ، المحاط بالجبال الثلاثة ، فى قلب (سيناء) .

ولثوان ، واصلت مروحتها دورانها ، قبل أن تتوقف تمامًا ، و(نور) يقول :

ـ كان من المفترض أن نأتى فى الصباح الباكر ، وفقًا لتقرير الدكتور (أنور) الأولى ، إلاّ أننى فضلت الوصول مع مغيب الشمس ، حتى لا نفقد لحظة واحدة من ضوء النهار .

أدارت (سلوى) عينيها فيما حولها ، وهى تغمغم فى توتر :

ـ الواقع أن فكرة قضاء الليل هنا ، مع ذلك اللغز الغامض ، تجعلنى لا أشعر بالارتياح يا (نور) .

قالت (نشوى) فى سرعة :

ـ هذا ينطبق علىّ أيضًا .

انعقد حاجبا (نور) ، دون أن يجيب ، فى حين شدّ (أكرم) قامته ، وهو يقول فى صرامة ، أراد أن يخفى بها توتره :

ـ سأتولى نوبة الحراسة الأولى .

ثم التفت إلى (رمزى) ، متسائلاً :

ـ ما رأيك فى أن تتولى النوبة الثانية ؟

كان (رمزى) يتطلّع إلى (نور) فى اهتمام ، حتى بدا وكأنه لم يسمع حرفًا واحدًا ، مما نطق به (أكرم) ، الذى قال ، فى شىء من الحدة :

ـ (رمزى) .

التفت إليه (رمزى) ، كمن يفيق من حلم يقظة ، وهو يقول :

ـ لا بأس يا (أكرم) .. لا بأس .

مطّ (أكرم) شفتيه ، وقال :

ـ إذن فقد كنت تسمعنى .

مرة أخرى لم يجب (رمزى) ، وعاد يتطلّع إلى (نور) فى اهتمام ، جعل هذا الأخير يقول فى صرامة :

ـ هيا .. سنعد خيام النوم .

تساءل قائد الحوّامة ، فى قلق ملحوظ :

ـ هل سأبقى ؟!

التفت إليه (نور) ، قائلاً :

ـ كلا .. ارحل أنت ، وسننتظرك هنا ، فى نفس المكان ، مع غروب شمس الغد .

تمتم الطيّار :

ـ لا بأس .

قبل حتى أن ينطقها ، كان يجذب عصا القيادة ، ويدير محركات الحوّامة ، وكأنما يرغب فى مغادرة هذا المكان ، الذى حشد فى أعماقه مخاوف عديدة ، لم يدر لها سببًا .

وفى صمت ، تابع أفراد الفريق ابتعاد الحوّامة وسط الظلام ، ثم غمغمت (نشوى) :

ـ ليلة أخرى مع الخطر .

تنهّدت (سلوى) ، قائلة :

ـ أظننا قد اعتدنا هذا .

انهمك الكل بعدها فى نصب الخيام وتنظيمها ، وتركيب الأجهزة الخاصة بـ (سلوى) و (نشوى) ، ثم سحب (أكرم) مسدسه ، ولوّح به ، قائلاً :

ـ تمنوا ألا تسمعوا رصاصاته ، فى قلب الليل .

مطت (نشوى) شفتيها ، مغمغمة :

ـ أظننى لهذا أفضل مسدسات الليزر .

هزّ (أكرم) كتفيه ، قائلاً :

ـ وأية متعة فى استخدامها .

قالها ، واتجه نحو صخرة كبيرة ، فى طرف الوادى ، وجلس مستندًا بظهره إليها ، وهو يتطلّع حوله فى حذر ، فالتقط (نور) منظارًا من مناظير الرؤية الليلية ، وألقاه إليه ، قائلاً :

ـ استخدم هذا .

التقط (أكرم) المنظار ، ومطّ شفتيه ، وهو يغمغم ، فى لهجة تحمل عدم الاقتناع :

ـ لو أنك تُصر .

وضع المنظار على عينيه ، ورأى المنطقة كلها تضاء بلون أخضر أمام بصره ، فمطّ شفتيه مرة أخرى ، مغمغمًا فى حنق :

ـ لست أدرى ماذا يروق لهم ، فى تلك التقنيات المزعجة .

فى نفس اللحظة ، التى نطق فيها عبارته ، كان (رمزى) يقترب من (نور) ، الذى يجلس صامتًا ، ويهمس فى أذنه متوترًا :

ـ ما السبب الحقيقى يا (نور) ؟!

لم يلتفت إليه (نور) ، وهو يقول فى صرامة :

ـ سبب ماذا ؟!

سأله (رمزى) بنفس التوتر :

ـ سبب قدومنا إلى هنا ليلاً .

صمت (نور) لحظة ، ثم أشاح بوجهه ، قائلاً :

ـ ألم تسمعنى جيدًا ؟! قلت : إننا هنا لكى نبدأ مع أول ضوء ..

قاطعه (رمزى) فى هدوء .

ـ يسوءنى كثيرًا أن تهمل خبراتى يا (نور) .

انعقد حاجبا (نور) ، دون أن يجيب ، فتابع (رمزى) ، وقد حملت كلماته لمحة عتاب واضحة :

ـ إننى خبير نفسى محنك يا صديقى ، ومنذ اللحظة الأولى ، أدركت أنك تخفى أمرًا ما .. ألا تجدنى أهلاً للثقة ، إلى الحد الذى يكفى لإخبارى عما تتشدده وتسعى إليه ؟!

صمت (نور) بضع لحظات أخرى ، ثم غمغم :

ـ لماذا أول ضوء ؟!

تمتم (رمزى) فى حيرة :

ـ لماذا ماذا ؟!

استدار إليه (نور) فى بطء ، وهو يقول :

ـ لماذا لابد من دخول الكهف ، مع أول ضوء فى الصباح ؟! لماذا ذكر الدكتور (أنور) هذا ، وأكده فى موضعين من تقريره الأولى ؟!

ثم نهض فجأة ، وهو يتابع ، فى شىء من التوتر :

ـ الدكتور (أنور) عالم شهير ، وميزانية أبحاثه ضخمة ، وكان يمكنه استخدام أحدث أدوات الرصد ، والرؤية الليلية ،

ومعدات يمكنها أن تحيل ظـلام الليل إلى نهار ، فلماذا أكَّد ضرورة البدء مع مطلع الشمس ؟!

وانعقد حاجباه ، فى تفكير عميق ، وهو يكرِّر ، فيمـا بـدا أشبه بالغضب ، منه بالحيرة :

ـ لماذا ؟!

شعر (رمزى) بمزيج من الدهشة والحيرة ، وهو يتطلَّع إلى ملامـح (نـور) ، محـاولاً أن يستكشـف مـا يـدور فـى أعماقه ، فى حين اقتربت منهما (نشـوى) قـائلـة ، وهى تحاول أن تبتسم :

ـ تُرى هل فكَّر أحدكم فيما سنتناوله هنا ، لو ..

بترت عبارتها بغتة ، وتراجعت بحركة حادة ، وعيناها تطلقـان لمحة رعب واضحة ، وتتطلعان إلى نقطة ما خلف ظهريهما ..

نفس النقطـة ، التـى يجلس عندهـا (أكرم) ، فـى نوبـة حراسته .

وبحركة غريزية سريعة ، التفت (نور) و(رمزى) إلى حيث تنظر ..

وقفزت من عيونهما نظرة أخرى عجيبة ..

فما رأياه أمامهما كان مدهشًا ..

ومخيفًا .

للغاية .

* * *

٢ـ الجبـال ..

نوبة الحراسة أمر شديد الملل ، بالنسبة لرجل مفعم بالحيوية والنشاط ، مثل (أكرم) ..

لقد جلس فى مكانـه صامتـًا ، يراقـب تلـك الجبـال الشاهقة ، التى بدت ، عبر منظار الرؤية الليلية ، غارقة فى ضوء أخضر باهت ..

وحاول أن يفكّر فى شىء ..

أى شىء ..

استرجع ذكريات لقائه مع زوجته (مشيرة) ..

وقصة حبهما ..

وخلافاتهما ..

وصراعاتهما ..

ومع تلك الذكريات ، سبح عقله بعيدًا ..

بعيدًا جدًّا ..

وتثاقلت عيناه ..

تثاقلتا ..

وتثاقلتا ..

وتثاقلتا ..

ولكن لا .

لا ينبغى له أن ينام ..

لا ينبغى له هذا أبدًا ..

إنه المسئول عن نوبة الحراسة ، ولابد وأن يؤدى دوره ، على خير ما ينبغى ..

لابد وأن يستيقظ ..

ويراقب ..

ويحمى رفاقه ..

مهما كان الثمن ..

وبكل إرادته ، قاوم تثاقل عينيه ، ونهض واقفًا ، وهو يفتحهما عن آخرهما ، ويهز رأسه فى قوة ، لينفض عنه الخمول والتثاقل ، و ...

وعندئذ رآه ..

تكوين عجيب ، شبه بشرى ، يقترب منه فى هدوء ، وكأنما يثق فى أنه لا يراه ..

واتسعت عينا (أكرم) أكثر ..

وأكثر ..

وأكثر ..

وحاول أن يقنع نفسه بأن ما يراه مجرد حلم ..

ولكن ذلك الشىء راح يتقدم .

ويتقدم ..

وهنا بدا واضحًا ..

ومؤكدًا ..

ورهيبًا ..

وفى سرعة ، ألقى (أكرم) كل توتراته خلف ظهره ، ورفع مسدسه ، و ...

وانقض عليه ذلك الشىء ..

بل وثب نحوه ..

واخترق جسده ..

جسده الذى انتفض فى عنف ، وكأنما اخترقته أقسى ثلوج القطب ، و ...

« (أكرم) .. يا إلهى ! ماذا بك ؟! » .

فتح عينيه ، وهو ملقى أرضًا ، وحدق فى وجوه رفاقه الأربعة ، فى شىء من الذهول ، قبل أن يرفع مسدسه مرة أخرى ، هاتفًا :

ـ احترسوا .

أمسك (نور) معصمه فى قوة ، فى حين قال (رمزى) ، محاولاً تهدئته :

ـ رويدك يا صديقى .. إنه نحن .

حدّق (أكرم) فى وجهه ، بنظرة حملت مزيجًا من الدهشة ، والحيرة ، والتوتر والغضب ، قبل أن ينتفض جسده مرة أخرى ، وينهض قائلاً :

ـ أين ذهب ؟!

تلفّتت (سلوى) و(نشوى) حولهما فى توتر ، وانعقد حاجبا (نور) فى شدة ، فى حين سأله (رمزى) فى اهتمام :

ـ ما الذى ذهب ؟!

لوّح (أكرم) بذراعيه ، وهو يحاول أن يبحث عن وصف يناسب ما رآه ، قبل أن يقول فى حدة :

ـ ذلك الشىء .

ازداد انعقاد حاجبى (نور) ، وظهر خليط من الدهشة والخوف ، على وجوه (رمزى) و(سلوى) و(نشوى) ، فتابع (أكرم) فى عصبية شديدة :

ـ لقد هاجمنى بغتة ، ووثب عبرى ، و ...

توقف فجأة ، عندما انتبه إلى فجوة كبيرة فى ذاكرته ..

لقد شعر بذلك الشىء يخترق جسده ..

ثم استعاد وعيه أرضًا ..

فماذا حدث ؟!

وكيف سقط ؟!

كيف ؟!

كيف ؟!

أطلّت تلك الحيرة من عينيه ، اللتين أدارهما فى وجوه الجميع ، قبل أن يهز رأسه فى قوة ، قائلاً :

ـ إنه كابوس .. لقد غلبنى النوم .. إنه كابوس حتمًا .

تبادل الكل نظـرة متوترة ، قبل أن يسأله (نور) فى تماسك :

ـ هل يمكنك أن ترويه لنا ؟!

انفرجت شفتا (أكرم) ، وتحرّكتا فى صمت ، وكأنما ترفض الكلمات تجاوز شفتيه ، ثم لـم يلبث أن قـال فى عصبية :

ـ كلاّ .. إنه أمر سخيف .. أحب أن أحتفظ به لنفسى ..

عادوا يتبادلون نظرة متوترة أخرى ، قبل أن تقول (نشوى) فى لهجة شديدة التوتر :

ـ لم يكن كابوسًا .

حملت عينا (أكرم) هلعًا عجيبًـا ، وهو يلتفت إليهـا بحركة حادة ، فقال (نور) :

ـ الواقـع يا (أكـرم) أننـا فوجئنـا بك تهب واقفًا ، وتسحب مسدسك ، كما لو أنك تواجه هجومًا من عدو خفى .

اتسعت عينا (أكرم) ، فى هلع أكثر ، وهو يحدّق فى وجه (نور) ، ثم لم يلبث أن هزّ رأسه فى قوة ، قائلاً :

ـ مستحيل ! لا يمكن أن يكون هذا حقيقة .

مال (نور) نحوه ، وقال فى حزم :

ـ أخبرنا ما رأيت ، وسنقرّر بأنفسنا .

ومخلصًا ، حاول (أكرم) أن يخبره ..

حاول ..

وحاول ..

وحاول ..

ولكن شيئًا ما فى أعماقه ، كان يمنعه من هذا ..

وبشدة ..

شىء سيطر على لسانه ، ودفعه إلى أن يقول فى خشونة :

ـ إنه مجرد كابوس .

لاحظ نظرة الشك فى عيونهم ، فتابع فى عصبية :

ـ ما فعلته ليس دليلاً على العكس ، فالمرء قد يتحرك أثناء نومه ، ويتفاعل مع حلمه أو كابوسه ، بحركات لا إرادية .

والتفت فى حدة إلى (رمزى) ، مضيفًا :

ـ أليس كذلك ؟!

تردّد (رمزى) لحظة ، قبل أن يقول فى حذر :

ـ هذا ممكن ، من الناحية العلمية ، و ...

قاطعه (أكرم) فى حدة :

ـ أرأيتم .

ثم سحب مسدسه فى صرامة عصبية ، وقال :

ـ والآن ، عودا إلى خيامكم ، فما زلت أصرّ على أن أتولى نوبة الحراسة الأولى .

قال (رمزى) فى قلق :

ـ أعتقد أنه من الأفضل أن ..

عاد (أكرم) يقاطعه فى صرامة :

ـ لن أناقش هذا .

قالها ، وعاد إلى موضعه ، عند تلك الصخرة الكبيرة ، وهو يمسك مسدسه فى غضب صارم ، فهمّت (سلوى) بقول شىء ما ، إلا أن (نور) استوقفها ، قائلاً :

ـ دعيه وشأنه .

ثم مال على أذنها ، هامسًا :

ـ ولكن أعدى أجهزتك للعمل الليلة .

سألته مبهوتة :

ـ هل تعتقد ..

قاطعها فى حزم :

ـ افعلى فحسب .

تطلّعت إليه (سلوى) لحظة ، وكأنما تحاول أن تقرأ ما يدور فى أعماقه ، ثم غمغمت :

- فليكن .

اتجهت لتعدّ أجهزتها ، فاقتربت (نشوى) من أبيها ، وغمغمت :

- لم يكن كابوسًا بالتأكيد .

تطلّع (نور) إلى حيث يجلس (أكرم) ، قبل أن يقول :

- أعلم هذا .. فصحيح أن الإنسان قد يأتى بحركات لا إرادية ، أثناء أحلامه ، وأن بعضهم يسير أثناء نومه(*) ، إلا أن هذا لا يمكن أن يحدث ، ضد قوانين الطبيعة نفسها .

ثم ألقى نظرة أخرى على (أكرم) ، وخفض صوته ، مستطردًا :

- لقد رأينا جميعًا كيف اندفع جسده إلى الخلف فى عنف ، كما لو أنه قد تلقّى لطمة قوية من شخص ما .

وصمت لحظة ، ثم أضاف فى حزم :

- أو شىء ما .

ولم تعلّق (نشوى) بحرف واحد ..

(*) حقيقة .

ولكن جسدها كله ارتجف ..

فى عنف ..

* * *

فى أعماق ذلك الكهف الغامض ، بدا كل شىء جامدًا ، ساكنًا صامتًا ، كما يفترض أن يكون عليه تكوين صخرى عادى ..

وكان يغرق فى ظلام ..

ظلام عميق ..

رهيب ..

مخيف ..

ثم راح صوت ضعيف يتصاعد فى بطء ..

صوت أشبه بخرير مياه ..

وعلى أرضية الكهف ، راحت تلك المياه تزحف ..

وتزحف ..

وتزحف ..

حتى مدخل الكهف ..

وتمامًا عند تلك الفتحة الشبيهة بفكى وحش مفترس، توقف زحفها دفعة واحدة ..

كان ذلك التوقف متعارضًا مع قوانين الفيزياء، والجاذبية الأرضية، إلا أنه حدث ..

ثم استكانت تلك المياه تمامًا ..

وعبرها، سرت موجة خفيفة ..

موجة راحت تتصاعد ..

وتتصاعد ..

وتتصاعد ..

ثم فجأة، توقفت ..

وتوقف اهتزاز سطح الماء فجأة، على نحو مناقض لكل قوانين الطبيعة، بلا استثناء .

وعلى الرغم من أن مدخل الكهف ينحدر إلى أسفل، على نحو ما، إلا أن المياه راحت تنحسر إلى الداخل .

وتنحسر ..

وتنحسر ..

ومرة أخرى، تصاعد ذلك الصوت الشبيه بالخرير ..

ثم توقف ..

وعاد الكهف يغرق فى ظلام ..

وصمت ..

وسكون ..

و ....

« هل سجلت هذا ؟! »

ألقت (نشوى) السؤال فى انفعال، وهى تحدق فى شاشة جهاز أمها، فأومأت (سلوى) برأسها

إيجـابًا ، وغمغمـت ، والحيـرة مـا زالـت تمـلأ نفسـها :

ـ نعم .. ولكن ..

سألها (نور) فى اهتمام ، وهو يخفض صوته ، حتى لا يسمعه أحد ، خارج خيمة الأبحاث :

ـ ولكن ماذا ؟!

هزّت رأسها ، وهى تطالع شاشة جهازها ، قائلة :

ـ ولكننى أجهل ما يعنيه .

سألها (نور) :

ـ وماذا لو استشرنا الكمبيوتر ؟!

غمغمت (نشوى) :

ـ لقد فعلت .

أدار (نـور) عينيـه إليهـا فـى سـرعة ، و(رمـزى) يسألها همسًا :

ـ وبم أشار .

تردّدت (نشوى) لحظة ، ثم اندفعت تجيب :

ـ إنه خرير مياه .

قالت (سلوى) ، فى سرعة وانفعال :

ـ بالضبط .

تراجع (رمزى) فى دهشـة ، وانعقد حاجبا (نـور) فى صرامة ، وهو يسأل (سلوى) :

ـ ولماذا لم تقولى هذا ؟!

هزّت كتفيهـا فـى توتـر ، وأشـارت إلـى جهازهـا ، قائلة :

ـ لأن هذا ليس مسارًا طبيعيًا للمياه .

سألها (نور) بمنتهى الاهتمام :

ـ ولماذا ؟!

أجابته (نشوى) هذه المرة :

ـ عندما تنسكب المياه ، من مصدر ما ، فهى تسير وفقًا لقاعدتين أساسيتين .. المسارات المتاحة ، والجاذبية الأرضية .

اندفعت (سلوى) تقول :

ـ وهذا ما فعلته تلك المياه داخل الكهف ، فى مرحلتها الأولى .

تساءل (رمزى) فى دهشة :

ـ أيمكن تحديد هذا ، عبر الالتقاط الصوتى وحده ؟!

أجابته (سلوى) فى حزم :

ـ بالطبع(*) .

أما (نور) فسألها فى شىء من القلق :

ـ وماذا عما حدث بعد هذا ؟!

أجابته (سلوى) ، فى توتر ملحوظ .

ـ لقد توقفت عند مدخل الكهف .

(*) حقيقة .

ازداد انعقاد حاجبى (نور) ، و(رمزى) يتساءل فى دهشة :

ـ وكيف هذا ؟!

هزت (نشوى) رأسها ، وأصابعها تضغط أزرار الكمبيوتر ، قائلة :

ـ المفترض أنه لا يوجد ما يحول بينها وبين استمرار السريان ، خارج حدود الكهف ، إلا أنها توقفت هناك ، وكأنما ..

بترت عبارتها بغتة ، فتابع (نور) ، وهو يفكر بمنتهى العمق :

ـ وكأنما تعمدت هذا .

هتفت (سلوى) فى انفعال :

ـ بالضبط .

جـاء دور (رمـزى) ، ليعقـد حاجبيـه فى شدة ، وهو يدير عينيه ، فى وجوه الثلاثة ، قبل أن تقـول (سـلوى) :

ـ وهذا أقل إثارة للدهشة ، مما حدث فى المرحلة الثالثة .

قال (نور) ، وكأنه يحدث نفسه :

ـ لقد انحسرت إلى الداخل .

تفجّرت دهشـة عارمـة ، فـى وجهـى (سـلوى) و(نشوى) ، وهتفت الثانية مبهورة :

ـ كيف عرفت هذا يا أبى ؟!

بدا شاردًا ، وهو يجيب :

ـ توقعته .. على نحو ما .

قالت (سلوى) فى انفعال شديد :

ـ هذا مخالف تمامًا لكل قوانين الجاذبية ، ومن المستحيل أن ..

بترت عبارتها بغتة ، عندما فتح (أكرم) باب خيمة الأبحـاث بحـركـة حـادة مبـاغتـة ، وهـو يقـول فى صرامة :

ـ ماذا تفعلون ؟!

انتفض جسد (نشوى) مع المفاجأة ، وحدّقت فى وجهه بشىء من الذعر ، وتراجع (رمزى) بحركة حادة ، وشهقت (سلوى) فى حين التفت إليه (نور) فى هدوء عجيب ، متسائلاً :

ـ هل انتهت نوبة حراستك ؟!

أجابه (أكرم) فى حدة :

ـ أعتقد هـذا ، فما هى إلا ساعة ونصف السـاعة ، وينبلج الفجر .

ثم أدار عينيـه فيهم فى صرامة ، امتزجت بغضبه ، قبل أن يتابع :

ـ ولكن من الواضح أنه هناك ما شغلكم عن ملاحظة هـذا .

تجاهل (نور) تلك الملاحظة الأخيرة ، وقال ، وهو يتحسّس مسدسه الليزرى :

ـ فليكن .. سأتولى نوبة الحراسة التالية .

قالها ، وهو يتجاوز (أكرم) ؛ ليغادر خيمة الأبحاث ، إلا أن أصابع هذا الأخير أمسكت ذراعه فى قوة ، وهو يقول فى خشونة :

ـ لم أسمع جواب سؤالى ..

وانعقد حاجبا (نور) بمنتهى الشدة ..

صحيح أن أصابع (أكرم) كانت تمسك ذراعه بمنتهى القوة ..

ولكن لم يكن هذا ما أثار توتره ..

وإنما هى درجة حرارتها ..

فقد كانت أصابع (أكرم) باردة كالثلج ..

أو أكثر برودة ..

بكثير .

* * *

٤ـ ميـــاه..

لم يغمض لـ (نور) جفن، طوال تلك الليلة ..

صحيح أنه قد تجاوز برودة أصابع (أكرم)، التى لايمكن أن تميز أى جسد حى، إلا أن الأثر الذى تركته على ذراعه، لم يكن من الممكن تجاوزه ..

علىَ الإطلاق ..

لقد تركت أصابعه علامات زرقاء واضحة، كما لو أنها قد اعتصرت ذراع (نور) اعتصارًا ..

ولكن (أكرم) نفسه لم يشعر بهذا ..

أو هذا ما تصوره (نور) ..

لقد فعلها، ثم ذهب إلى خيمته، ونام بمنتهى العمق، حتى إن (نور) ظل يسمع أنفاسه المنتظمة، طوال تلك الساعة ونصف الساعة، التى مرّت حتى الفجر ..

كانت هناك ألف فكرة، وفكرة، تلتهب فى عقل (نور) ..

ومخـه ..

وكيانه كله ..

ألف فكرة، تبدو أشبه بألف ألف كابوس ..

وبينما يتطلع إلى مدخل الكهف، راح يحاول ترتيب أفكاره، وفقًا لما لديه من معلومات قليلة ..

قليلة للغاية ..

ومخيفة للغاية ..

فمنذ اللحظة الأولى، التى قرأ فيها تقرير الدكتور (أنور)، أدرك أن ذلك الكهف يحوى شيئًا ما ..

شيئًا يتجاوز حدود الإدراك الطبيعى ..

شيئًا غامضًا ..

خارقًا ..

ومخيف ..

ولكنه ما زال يجهل ما يمكن أن يكون ..

عقله البشرى، على الرغم من كل ما واجهه مع فريقه، ما زال عاجزًا عن تصور ماهية ذلك الشىء ..

أو تكوين تصور منطقى له ..

لقد شاهد ذلك الفيلم، الذى صوره فريق البحث العسكرى ..

شاهده مرة ..

وثانية ..

وثالثة ..

ولكنه لم يجد به لمحة واحدة ، توحى بأن ذلك الكهف يمكن أن يختلف ، عن أى كهف آخر ..

مجرد كهف ..

وتكوينات صخرية ..

وأحجار ..

و ...

ومياه ..

لم يكن الفيلم يحوى قطرة مياه واحدة ، داخل ذلك الكهف ..

فما الذى سجلته أجهزة (سلوى) إذن ؟!

تداخل السؤال فى رأسه ، مع عدد من الأسئلة الأخرى ، وراح عقله يعمل ..

ويعمل ..

ويعمل ..

« الفجر يا (نور) .. »

انتزعه صوت (أكرم) فجأة من أفكاره ، وفوجئ به على قيد خطوة واحدة منه ، فهب واقفًا بحركة حادة ، وقال فى توتر :

ـ (أكرم) ؟! كيف ؟!

لم يتم تساؤله ، وهو يكتمه فى أعماقه ، قبل أن ينطق به لسانه ، فابتسم (أكرم) ، وهو يقول :

ـ هل أفزعتك ؟!

صمت (نور) لحظة وهو يتطلع إليه ، قبل أن يقول فى حذر :

ـ الواقع أننى لم أشعر بقدومك .

أطلق (أكرم) ضحكة مرحة قصيرة ، ومال نحوه ، قائلاً :

ـ أمر طبيعى يا صديقى ؛ فأنا أتحرك بخفة فهد صيد متمرّس .

قالها، وأطلق ضحكة مرحة قصيرة، وهو يضيف :

ـ هيا .. سأوقظ الرفاق، لنبدأ على الفور .

تبعه (نور) ببصره فى حيرة، وهو يتجه إلى الخيام، ويوقظ الكل بعباراته المرحة المعتادة ..

كان يبدو وكأنه قد استعاد هويتـه، وطبيعتـه الأوليـة بغتة، بعد ساعة ونصف الساعة فحسب من النوم !!

ماذا حدث إذن ؟!

مـاذا ؟!

مـاذا ؟!

ظل (نور) يتابع (أكرم)، لخمس دقائق كاملة، ثم لم يلبث أن اتجه نحوه، وأمسك يده، قائلاً :

ـ أريدك فى المقدمة يا صديقى .

أطلق (أكرم) ضحكة صافية، وهو يقول :

ـ ألست كذلك دومًا ؟!

وابتسم (نور) ..

أو أنه حاول أن يبتسم ..

فيد (أكرم) كانت قد استعادت حرارتها الطبيعية ..

وكان هذا يضاعف التساؤل عما حدث ..

ألف مرة ..

★ ★ ★

« ماذا سجلت أجهزتكم بالضبط ؟! »

ألقى القائد الأعلى للمخابرات العلمية السؤال، على فريق العلماء، الذين اجتمع بهم، فتنحنح أحدهم، وأجاب :

ـ مسح المنطقة، بالأشعة دون الحمراء، والموجات فوق الصوتية، والكهرومغناطيسية، لم يسفر عن أية نتائج واضحة .

بدا الجواب محبطًا إلى حد كبير، فتراجع القائد الأعلى فى مقعده متوترًا، قبل أن يضيف أحد العلماء :

ـ للوهلة الأولى .

اعتدل القائد الأعلى بحركة حادة، متسائلاً :

ـ ما الذى يعنيه هذا بالضبط ؟!

ضغط العالم زرًا ، فظهرت على الشاشة خريطة لتلك البقعة من (سيناء) ، ثم تحولت إلى خريطة مغناطيسية ، وصوتية ، والعالم يقول :

- لو فحصنا نتائج الفحص فوق الصوتى والكهرومغناطيسى ، سنجد أنها لاتختلف عن كل ماحول الهدف ، أما بالنسبة للخريطة الحرارية ، فالأمر يختلف إلى حد ما .

بضغطة زر أخرى ، ظهرت الخريطة الحرارية للمكان على شاشة العرض ، وتطلع إليها القائد الأعلى فى اهتمام وإمعان ، قبل أن يتساءل فى حيرة :

- وماذا عنها ؟! إنها تبدو لى مشابهة أيضًا .. لافارق فيها بين الهدف ، والمناطق المحيطة به .

رفع العالم سبابته ، وهو يقول فى حماس :

- ليس هذا برأى الكمبيوتر .

انعقد حاجبا القائد الأعلى فى اهتمام ، والعالم يتابع بنفس الحماس :

- العين البشرية لها حدود ، فى تمييز الألوان ، لذا لايمكنها فى بعض الأحيان ، رصد التغيرات الطفيفة ، فى لون ما ، أما أجهزة الكمبيوتر والماسحات الضوئية ، فهى أكثر دقة بكثير .

واستخدم مؤشرا ليزريًا ، ليحيط منطقة الهدف ، مستطردًا فى حماس أكثر :

- ولقد تبينت الأجهزة المتطورة ، وجود اختلاف قدره عُشر درجة ، بين حرارة منطقة الهدف ، وما يحيط بها .

غمغم القائد الأعلى :

- عُشر درجة ؟!

أومأ عالم آخر برأسه ، قائلاً :

- لقد درسنا توزيع الهواء فى فراغ الكهف ، وتأثيره فى درجة الحرارة ، وغيرها من العوامل الطبيعية ، قبل أن نتوصل إلى أن هذا الاختلاف ليس طبيعيًا ، على الرغم من ضآلته .

تساءل القائد الأعلى :

- هل تعتقدون أن ارتفاعًا قدره عُشر درجة مئوية ، قد يعنى شيئًا ما ؟!

تبادل العلماء نظرة صامتة ، ثم أجاب صاحب النظرية :

ـ ربما يا سيدى ، ولكن الواقع أنه انخفاض ، وليس ارتفاعًا .

ثم مال نحو القائد الأعلى ، مضيفًا للتأكيد :

ـ درجة حرارة الهدف تقل عشر درجة ، عن كل ما يحيط به .

التقى حاجبا القائد الأعلى فى تفكير عميق ، قبل أن يسألهم فى اهتمام بالغ :

ـ وما الذى يمكن أن يعنيه هذا ؟!

تبادل العلماء نظرة صامتة أخرى ، ثم أجاب أكبرهم ، فى تردد شديد ، وحذر أشد :

ـ الواقع أننا نجهل هذا تمامًا .

وازداد التقاء حاجبى القائد الأعلى فى غضب ..

فمازال اللغز غامضًا ..

أو ازداد غموضًا ..

بالتأكيد ..

★ ★ ★

من المؤكد أن ذلك الكهف يحوى شيئًا ما ..

تلك الرهبة التى تدخل نفس كل من يقف عند مدخله ، كانت وحدها دليلاً على هذا ..

فأمام الكهف ، وقف أفراد الفريق صامتين ، يتطلّعون إلى المدخل الصخرى ، الشبيه بفكى وحش رهيب ، قبل أن يقطع (نور) هذا الصمت ، وهو يقول فى شىء من الخشونة ، صنعها توتره :

ـ هيا بنا ، على بركة الله .

أشعلت (سلوى) و(نشوى) أجهزتهما ، وأضاء (نور) و(رمزى) مصباحين قويين ، فى حين أمسك (أكرم) مسدسه بقبضتيه ، وهو يتقدّم الجميع فى حذر ..

ومع خطواتهم الأولى ، غمغم (نور) :

ـ الأرض جافة .

أدرك الجميع ، فيما عدا (أكرم) ، ما يعنيه ، وتبادلوا نظرة صامتة ، ثم واصلوا التقدُّم عبر الكهف ..

كانت هناك مسارات متداخلة ومعقدة ، أشبه بمتاهة تم حفرها عمدًا ، ولكن (نور) كان يسترشد بالخريطة اليدوية ،

التى وضعها الدكتور (أنور) فى تقريره، وبجهاز تحديد مسار رقمى، يسجل كل حركاتهم، حتى لايضلوا طريقهم ..

وفى توتر، غمغم (أكرم)، بعد نصف ساعة من البحث :

ـ ما الذى أثار اهتمامهم بهذا الكهف .. إنه يبدو خاليًا تمامًا .

غمغم (نور) :

ـ وعلى الرغم من هذا، فقد اختفى أربعة أشخاص داخله .

قال (أكرم) فى عصبية :

ـ ربما ضلوا طريقهم .

توقف (نور)، قائلاً :

ـ كان يمكنهم على الأقل، الاستجابة لأى نداء .

قال (أكرم)، وهو يتلفت حوله :

ـ وكيف هذا ؟!

أحاط (نور) فمه بكفيه، وصاح بكل قوته :

ـ نحن هنا .

بدا صياحه مزعجًا للغاية، عندما رنَّنته جدران الكهف، وتردَّد صداه عبر ممراته المتشابكة، فهتفت (سلوى) :

ـ يا إلهى ! هذا لايحتمل يا (نور) .

لم تكد تتم عبارتها، حتى تردَّد فجأة ذلك الصوت ..

صوت رهيب ..

قوى ..

مخيف ..

صوت أشبه بزمجرة ليث ..

وفحيح ثعبان ..

وصرخة طائرة جارح ..

معًا ..

تردَّد فى قوة، مع صدى رهيب، جعل (نشوى) تصرخ فى رعب، ودفع (سلوى) إلى أن تتعلق بزوجها (نور)، هاتفة :

ـ ما هذا يا (نور) ؟!

أما (رمزى) و(أكرم)، فقد ردّدا فى آن واحد :

ـ يا إلهى !

وبمنتهى القوة، انعقد حاجبا (نور)، وهو يدير عينيه فى المكان، بكل توتر الدنيا ..

لقد كان على حق ..

هناك شىء ما هنا ..

شىء رهيب ..

وغامض ..

ومرة أخرى، كرّرت (سلوى)، بمنتهى الرعب :

ـ ما هذا يا (نور) ؟!

أجابها فى صرامة عجيبة، لا تتناسب مع الموقف :

ـ جزء من اللغز .

ثم التفت إليها، مستطردًا :

ـ هل سجلت أجهزتك هذا الصوت ؟!

ارتفع حاجبا (سلوى)، وكأنما يدهشها أن هذا لم يرد بخاطرها، وهتفت فى حماس :

ـ بالطبع .

أشار إلى الجهاز، قائلاً :

ـ دعينا نر ما الذى سجله إذن .

أسرعت أصابعها تضغط أزرار الجهاز، والكل يتابعها فى اهتمام، فى حين راح (أكرم) يتطلع إلى أعماق الكهف المظلم، فى توتر شديد، ويده تقبض على مسدسه بمنتهى التحفز ..

وبسرعة البرق، راح جهاز الصوتيات يعيد بث الإشارة ..

ويدرسها ..

ويحللها ..

ويضع تقريره الكامل عنها ..

ثم جاءت النتيجة مدهشة ..

وبكل دهشتها، غمغمت (سلوى) :

ـ إنه مزيج صوتى .

التفت إليها (أكرم)، بعينين حائرتين متسائلتين، فتابعت :

ـ إنها ثلاثة أصوات منفصلة ، تمّ مزجها بوسيلة صناعية ، لتصدر صوتًا مشتركًا ، له إيقاع رهيب ؛ بهدف التأثير على مقتحمى المكان .

تمتم (نور) ، فى تفكير عميق :

ـ الأسد ، والأفعى ، والنسر .

أجابته فى سرعة :

ـ بالضبط .

تلفت حوله بدوره ، وهو يتمتم مرة أخرى :

ـ هذا يؤيّد نظريتى .

انعقد حاجبا (أكرم) ، وهو يتطلع إليه فى اهتمام قلق ، فى حين سأله (رمزى) فى لهفة :

ـ وما نظريتك يا (نور) ؟!

وعلى الرغم من خبرته النفسية ، لم يستطع (رمزى) الجزم ، بما إذا كان (نور) لم يسمع سؤاله ، أم إنه قد تجاهله عمدًا ، وهو يسأل (سلوى) بكل اهتمام :

ـ وهل حدّدت مصدره ؟!

أجابته ، وهى تضغط أزرار الجهاز مرة أخرى :

ـ ليس هذا بالأمر العسير .

ظهرت الإحداثيات على الجهاز ، فتراجعت بحركة حادة ، جعلت (رمزى) يسألها فى توتر :

ـ ماذا وجدت ؟!

أشارت بيدها إشارة مبهمة ، مجيبة بصوت مرتجف :

ـ إنه يأتى من كل مكان ..

وصمتت لحظة ، قبل أن تضيف ، ونبراتها أكثر ارتجافًا :

ـ تقريبًا .

فجّر قولها هذا قنبلة من التوتر ، فى المكان كله ، فراح (نور) و(رمزى) و(سلوى) و(نشوى) يتبادلون نظرة صامتة ، و ....

« أين (أكرم) ؟! »

هتف (نور) بالسؤال فجأة ، فانتبه الكل دفعة واحدة ، وراحوا يتلفتون حولهم ، بمنتهى الدهشة والتوتر ، قبل أن يهتف (رمزى) :

ـ رباه ! لقد كان إلى جوارى ، منذ دقائق قليلة .

تلفتوا حولهم ، فى شىء من الذعر ، قبل أن يهتف (نور) :

ـ (أكرم) .. أين أنت ؟!

تردَّد هتافه فى أرجاء الكهف ..

وممراته ..

وجدراته ..

وارتد ..

وما من مجيب ..

ومرة أخرى ، أحاط (نور) فمه بكفيه ، وصرخ بكل قوته :

ـ (أكرم) .. هل تسمعنى ؟!

سجَّل جهاز (سلوى) الصرخة ..

والصدى ..

الصدى ، الذى تردَّد بمنتهى العنف ..

ولكن (أكرم) لم يجب ..

لقد اختفى فى قلب الكهف ..

تمامًا ..

★ ★ ★

فجأة ، لمح (أكرم) ذلك الشىء ..

كان الكل منشغلاً بمتابعة شاشة جهاز (سلوى) ، عندما رآه يتحرك ، على مسافة بعيدة نسبيًّا ..

أراد أن يهتف ..

أن يخبر (نور) ..

والرفاق ..

أراد أن يفعل أشياء عديدة ، إلا أنه لم يفعل أيًّا منها ، وإنما قبضت أصابعه بشدة على مقبض مسدسه ، واندفع خلف ذلك الشىء ..

شىء له تكوين عجيب ..

عجيب للغاية ..

شىء راح يغوص فى أعماق الكهف ..

ويغوص ..

ويغوص ..

ويغوص ..

و(أكرم) يغوص خلفه ..

ويطارده ..

و ....

وفجأة ، شعر أن كل شىء من حوله قد تغير ..

وأن الأضواء تتزايد ، على نحو سريع ..

وتوقف (أكرم) ..

توقف ، وسرى فى عروقه توتر بلا حدود ..

توتر ، ربما لم يشعر بمثله ، فى حياته كلها ..

ومرة أخرى ، أراد أن يصرخ ..

أن يستنجد بـ (نور) ورفاقه ..

ولكن ذلك الشىء لم يمهله ..

لقد استدار إليه ..

وتوقف ..

ومع الضوء المتزايد ، بدا أكثر وضوحًا ..

وأكثر غرابة ..

واتسعت عينا (أكرم) عن آخرهما ..

وانحبست صرخته فى أعمق أعماقه ، وخاصة عندما برز شىء ثان ..

وثالث ..

ورابع ..

وخامس ..

وسادس ..

وعلى الرغم من شغفه برصاصاته ، خفض (أكرم) فوهة مسدسه ، وتلك الأشياء تحيط به ..

ثم عاد الكهف يغرق فى ظلام ..

ظلام دامس ..

بلا قرار .

* * *

٥ـ الأعمـــاق ..

« ربما هو نهر فى الأعماق .. »

نطق أحد أفراد الفريق العلمى العبارة ، وهو يراجع الخريطة الحرارية للمرة السادسة ، قبل أن يضيف ، فى لمحة من الحماس :

ـ هذا سيؤدى إلى عملية تبريد مستمرة ، ربما تكون السبب فى انخفاض حرارة الهدف عما حوله .

تبادل العلماء نظرة صامتة ، ثم قال أحدهم ، متشككًا :

ـ وماذا عن باقى مسار النهر ؟!

ثم أشار بسبّابته إلى الخريطة ، مستطردًا :

ـ الانخفاض فى الحرارة يتركز عند منطقة الهدف وحدها ، ولا يمتد إلى نقطة واحدة خارجها ، وهذا يتنافى مع فكرة النهر .

غمغم الأول :

ـ ربما هى بحيرة .. مياة جوفية ، أو ...

لم يستطع إتمام عبارة ، لا يثق هو نفسه فى صحتها ، فلاذ بالصمت ، وهو ينكمش فى مقعده ، ليسود صمت عام ، استغرق بضع لحظات ، قبل أن يقول رئيس الفريق فى حزم :

ـ ولكن هناك تفسير ما حتمًا .

عاد الصمت يسيطر عليهم ، بضع لحظات أخرى ، ثم لم يلبث أحدهم أن تمتم مقترحًا فى حذر :

ـ ربما هى تيارات الهواء .

تطلّع إليه العلماء الآخرون فى صمت ، بنظرات مستهجنة ، فتراجع متمتمًا فى توتر :

ـ ربمـا .

قبل أن يتفوه أحدهم بحرف واحد ، اقتحم أحد أفراد طاقم الرصد القاعة ، وهو يقول فى انفعال :

ـ هل رأيتم ما حدث ؟!

التفتوا جميعهم إليه بنظرات منزعجة ، وتساءل أحدهم :

ـ وماذا حدث ؟!

أجـاب فى انفعال أكثر ، وهو يشعل شاشة الرصد ، الملحقة بقاعة الأبحاث :

ـ لن تصدقوا .

تعلقت عيونهم جميعًا بالشاشة ، التى أضيئت تدريجيًا ، وظهر عليها توزيع حرارى لمنطقة الهدف ..

واتسعت عيونهم كلها ، فى دهشة بالغة ..

فما رأوه ، كان بالفعل يصعب تصديقه ..

تمامًا !

* * *

« لا أثر له .. »

نطق (رمزى) العبارة فـى توتـر بـالغ ، وهو يقف فـى أعمـاق ذلـك الكهـف ، فـامتقع وجهـا (سـلوى) و(نشـوى) أكثـر ، فى حين تمتم (نور) ، فـى صرامـة غاضبة :

ـ مستحيل !

وأدار عينيه فى المكان ، قبل أن يضيف :

ـ لايوجد مخـرج واحـد من هـذا المكان ، وأجهزة (سلوى) أكدت أن الجدران كلها مصمتة ، لاتحوى أية أنفاق أو فجوات خفيـة ، ونحن كنـا نقف عند المدخل الوحيد للمكان ، فأين ذهب (أكرم) ؟!

حملت عيونهم مزيج التوتر والحيرة ، وهم يديرونـهـا فيما حولهم وقد بدت لهم صخور الكهف ، على أضـواء المصـابيح الكاشـفة ، أشبه بوحـوش حجريـة متحفزة ، تتربص بهم ، وتراقبهم فى وحشية ، وكأنها تنتظر اللحظة المناسبة ؛ لتنقض عليهم ، وتفترسهم بلا رحمة ، و ...

« بـوابة .. »

نطقت (نشوى) الكلمة بصوت مرتجف ، فالتفت إليهـا الكل ، فى توتر متسائل ، جعلها تتابع :

ـ ماذا لو أن هذا الكهف يحوى بوّابة إلى عالم آخر .

بدت الدهشة على وجهى (رمزى) و(سلوى) ، فـى حين بدا (نـور) شـديد الاهتمـام ، وهو يتطلع إليهـا ، فواصلت فى توتر :

ـ هذا هو التفسير الوحيد بوّابة تنقل من يعبرها إلـى عالم مواز ، أو بعد آخر ، أو ...

قاطعتها (سلوى)، فى شىء من العصبية :

ـ ولماذا لم تلتقط أجهزتى هذا ؟!

بحثت (نشوى) فى ذهنها عن جواب ما ..

أى جواب ..

ولكن عقلها عجز عن هذا ..

إنها تعلم أن أجهزة أمها شديدة الحساسية، ويمكنها التقاط أية ذبذبة، مهما بلغ خفوتها، لو أنها حدثت فى دائرة فعاليتها ..

وبالتحديد، لو كانت ذبذبة كافية، لنقل رجل ناضج، إلى عالم آخر ..

أو بعد آخر ..

أو حتى مستوى آخر ..

« ماذا سجلت أجهزتك ؟! »

ألقى (نور) السؤال، ليقطع خيط أفكار (نشوى)، فتطلّعت إليه (سلوى) فى شىء من الحيرة، قبل أن تجيب :

ـ ولِمَ لا نرى بأنفسنا ؟!

أشعلت أجهزتها بأصابع مضطربة، وراحت تستعيد كل ما سجلته، فى فترة اختفاء (أكرم) ..

وعلى الشاشة، تراصت النتائج ..

وغمغم (نور) :

ـ هناك شىء ما .

ففى اللحظات، التى اختفى فيه (أكرم)، سجلت أجهزة (سلوى) ذبذبة إضافية خافتة ..

خافتة للغاية ..

ذبذبة ..

وثانية ..

وثالثة ..

ورابعة ..

وخامسة ..

ذبذبات شديدة الضعف، تصاعدت على نحو متسلسل، ثم تلاشت دفعة واحدة، دون مقدمات ..

نبذبات ، قد لا تعنى شيئًا ..

وقد تعنى كل شىء ..

ولثوان ، ظلّ الجميع يتطلعون إلى النتائج فى صمت ، قبل أن يقول (نور) بمنتهى الحزم :

ـ أريد تحليلاً دقيقًا ، لما يمكن أن يعنيه هذا .

غمغمت (سلوى) :

ـ سأبذل قصارى جهدى .

ربّتت عليها (نشوى) ، وهى تقول فى خفوت :

ـ سنتعاون معًا فى هذا .

شملهم الصمت بضع لحظات أخرى ، قبل أن يلقى (نور) نظرة على ساعة يده ، قائلاً فى حزم ، أخفى خلفه الكثير من المرارة والتوتر :

ـ أعلم أن هذا قد يصيبكم جميعًا بالإحباط ، ولكننا لم نعد نملك ما نفعله ، والشمس على وشك المغيب ، وليس أمامنا سوى أن نغادر هذا الكهف .

تمتم (رمزى) فى ارتياع :

ـ وماذا عن (أكرم) ؟!

كتم (نور) مرارته وآلامه فى أعماقه ، وقال فى توتر :

ـ هيا بنا .

لم يكن أفراد الفريق قد ذاقوا النوم لحظة واحدة ، طوال الليلة السابقة ، وعلى الرغم من هذا ، فقد عادوا إلى معسكرهم صامتين ، ولا أحد منهم يجرؤ على التفوه بحرف واحد ..

ومع اختفاء قرص الشمس ، خلف الجبال الضخمة ، شعروا وكأنها تسحب قلوبهم وأرواحهم معًا ..

لم يكن من السهل عليهم تقبل فكرة فقدان (أكرم) ، فى هذا المكان الرهيب المخيف ..

لم يكن من السهل عليهم أبدًا ..

لذا فقد شملهم صمت ووجوم ثقيلين ، قطعهما (نور) ، وهو ينهض فى حزم ، قائلاً :

ـ أظننا لن نساعد (أكرم) بحزننا هذا .

غمغمت (سلوى) فى مرارة :

ـ إننا نجهل حتى أين هو .

أجابها (نور) بنفس الحزم :

ـ علينا أن نبذل قصارى جهدنا للبحث إذن ، وهذا لن يتأتى بالحزن والمرارة واجترار الأسى .

تمتم (رمزى) :

ـ يا لك من قائد يا (نور) !

التفت إليه (نور) ، بعينين تكتمان دموع الحزن بإرادة من حديد ، وهو يقول :

ـ دعونا لا نضيع الوقت .

تساءلت (نشوى) دامعة :

ـ وماذا يمكننا أن نفعل ، أكثر مما فعلنا بالفعل ؟!

أجابها بمنتهى الحزم :

ـ يمكننا أن نعيد دراسة الأمر مرة ثانية .. وثالثة .. ورابعة .. ونواصل دراسته ألف مرة ، لو اقتضى الأمر ، علنا نجد فى مرة منها ، لمحة خفيت عنا ، فى المرات الأولى .

نهضت (سلوى) ، قائلة فى حزم :

ـ صدقت .

واتجهت مع (نشوى) إلى أجهزتها ، وراحت تعيد دراسة الأرقام والمنحنيات ، والصور الحرارية ، فى حين اقترب (رمزى) من (نور) ، وهمس فى تعاطف واضح :

ـ أعلم ما تعانيه يا (نور) .

همس (نور) فى مرارة :

ـ لست أعتقد هذا .

ابتسم (رمزى) ابتسامة مشفقة ، وهو يقول :

ـ إنك بهذا تنتقص الكثير من خبراتى النفسية يا (نور) .. إننى أعلم جيدًا كم تعانى ، وكم تتعذب لفقدان زميلك وصديقك ، وعجزك عن العثور عليه ، أو معرفة مصيره .. أعلم أن هذا يزعجك ، ويوترك ، ويزعزع ثقتك فى نفسك وقدراتك ، خاصة مع معطيات عديدة ومربكة كهذه ، ولكن إن كنت تفقد ثقتك فى نفسك ، فأنا لم أفقد ثقتى بك لحظة واحدة .. أنا واثق من أنك ستحل هذا اللغز ، كما حللت كل الألغاز السابقة ، وستنتصر على الغموض ، كما فعلت من قبل ، و ...

بتر عبارته دفعة واحدة ، فقال (نور) فى صرامة :

ـ وماذا يا صديقى ؟! هل سأستعيد (أكرم) والباقين ، أم إننا قد فقدناهم إلى الأبد ؟! هل يمكنك أن تمنحنى إجابة واثقة على هذا .

صمت (رمزى) لحظة ، ثم أجاب فى تردُّد :

ـ الواقع يا (نور) أنه ما من دليل واحد على ...

قبل أن يتم عبارته ، ارتفع رنين جهاز الاتصال ، الذى يحمله (نور) ، فالتقطه من جيبه فى سرعة ، وقال :

ـ المقدّم (نور) .

أتاه صوت القائد الأعلى ، وهو يقول فى انفعال :

ـ (نور) .. هناك أمر خطير ، بشأن ذلك الكهف ، لابد وأن تعلمه على الفور .

تساءل (نور) فى توتر :

ـ وما هو ؟!

التمعت عيناه على نحو عجيب ، عندما أخبره القائد الأعلى ما لديه ، وشعر بارتجافة عجيبة فى أوصاله ، وهو يقول :

ـ على الرغم من غرابة هذا ياسيدى ، إلا إننى توقعت كل عجيب هذه المرة ..

تساءل القائد الأعلى فى دهشة :

ـ حتى هذا ؟!

أجاب (نور) فى حزم :

ـ حتى هذا يا سيدى .

أنهى المحادثة ، واستدار ليقول لـ (رمزى) :

ـ لن تصدق ما توصل إليه العلماء ، بشأن الـ ...

بتر عبارته قبل أن يكملها ، وانعقد حاجباه فى شدة ..

فخلفه كان المكان خاليًا ..

و(رمزى) لم يكن هناك ..

على الإطلاق ..

★ ★ ★

لم تكن هناك ليلة أسوأ من هذه ، فى حياة الفريق كلها ..

ففى ساعات قليلة ، فقدوا اثنين من أنشط زملائهم ..
جاءوا يبحثون عن مفقودين ، ففقدوا رجلين ..
بلا أثر ..
أو تفسير ..
وكما حدث مع (أكرم) ، اختفى (رمزى) فجأة ، دون أن يترك خلفه أدنى أثر ..
وطوال الليل ، وبلا هوادة ، راح الباقون يبحثون عنه ، فى كل مكان ..
استخدموا تقنيات رصد الصوت ..
والذبابات ..
والتغيرات الحرارية ..
وحتى التوزيع الكهرومغناطيسى ..
وعندما بلغت عقارب الساعة الثالثة والنصف صباحًا ، كان الإجهاد قد بلغ منهم مبلغه ، وأضيف إليه طن من الغضب ، جعل (نور) يقف فى مواجهة ذلك الكهف الغامض ، ملوحا بقبضته ، وهو يهتف :
ـ ماذا تريد منا ؟! ماذا تفعل بنا ؟! أى شر تضمره فى نفسك تجاهنا ؟!

تبادلت (نشوى) و(سلوى) نظرات شديدة القلق ، قبل أن تقترب الأخيرة من (نور) فى حذر ، وتمس كتفه ، قائلة :
ـ (نور) .. إنك تتحدث إلى كهف .
أجابها (نور) فى صرامة ، دون أن يلتفت إليها :
ـ إنه يسمعنا .
حدّقت فيه ذاهلة ، ولكنه استدار إليها ، مكملاً فى حدة :
ـ إنه حى .
شهقت (سلوى) فى ذعر ، وهتفت (نشوى) بكل رعب الدنيا :
ـ حى ؟!
عاد (نور) يتطلّع إلى الكهف فى بغض ، مجيبًا :
ـ نعم .. حى .
تبادلت الاثنتان نظرة ملتاعة أخرى ، قبل أن تغمغم (سلوى) :
ـ (نور) .. إنه مجرد كهف .

التفت إليها مرة ثانية ، وهو يقول فى حدة :

ـ كهف ينبض .

حدقت فيه مع (نشوى) ، فتابع :

ـ العلماء فى (القاهرة) الجديدة ، رصدوا نبضة تنبعث منه ، كل دقيقة .. نبضة منتظمة .. لاتأتى من شىء داخله أو أسفله أو حوله .. بل منه مباشرة .

اتسعت عينا (نشوى) ، وهى تغمغم :

ـ ولكن هذا مستحيل !

أجابها فى شراسة غير معتادة :

ـ فى عالمنا ، لايوجد مستحيل !

كان يبدو عصبيًا ، على نحو يفوق كل المرات ، التى رأوه عليها من قبل ، فربتت (سلوى) على صدره ، قائلة فى إشفاق :

ـ (نور) .. إنك تحتاج إلى قدر من النوم .

انتفض جسده ، وهو يهتف :

ـ مستحيل !

قالت (نشوى) فى حدة :

ـ أنت قلتها الآن : لا يوجد فى عالمنا مستحيل .. ثم إن النوم لم يعد خيارًا إضافيًا متاحًا ، وإنما ضرورة يطلبها جسدك فى إلحاح .

كان (نور) يبدو شديد الإرهاق والانفعال بالفعل ، وهو يقول فى عصبية :

ـ وماذا سيحدث لو نمت ؟

أجابته (سلوى) :

ـ سيستعيد جسدك طاقته ، و ...

قاطعها ، فى عصبية أكثر :

ـ ماذا سيحدث لكما ؟!

أدركت (سلوى) ما يعانيه ، فربتت عليه مرة أخرى ، وهى تقول :

ـ لا تقلق نفسك بشأننا يا (نور) .. إننا نستطيع حماية أنفسنا .

قال فى حدة :

ـ وكذلك كان (أكرم) ، و(رمـزى) ، ولكن هذا لم يمنع اختفاءهما .

ثم هز رأسه فى قوة ، قائلاً :

ـ كلا .. سأبقى لحراستكما وحمايتكما ، و ...

قبل أن يتم عبارتـه ، شـعر بوخـزة حـادة فـى فخـذه اليسرى ، فاستدار فـى غضـب إلـى (نشـوى) ، التـى تراجعت ممسكة بمسدس حقن ، وهى تقول :

ـ معذرة يا أبى .. إنك لم تترك لى الخيار .

تضاعف غضبه ، وهو يهتف :

ـ هل حقنتنى بذلك العقـار المنـوم ، الـذى أحضـره (رمزى) ؟! كيف تجرؤين ؟!

تراجعت أكثر ، متمتمة :

ـ أرجوك يا أبى ..

أراد (نور) أن يتقدم نحوها ..

ولكن قدميه لم تطاوعانه ..

لقد شعر بهما ثقيلتين ..

جامدتين ..

ثابتتين ..

ورأسه راح يدور ..

ويدور ..

ويدور ..

وبكل ما تبقى من قوته ، غمغم :

ـ من سيحميكما ؟!

رأى صورتها مهتزة أمامه ، وسمع صوت (سلوى) ، وكأنه يأتى من أعماق بئر سحيقة ، قائلة :

ـ الله (سبحانه وتعالى) سيحمينا .

وأمام عينيه ، راحت الصورة تهتز ..

وتهتز ..

وتهتز ..

ثم امتلأت نفسه بالفزع ..

فحول (سلوى) و(نشوى)، ظهرت كائنات عجيبة ..

كائنات يعجز عن وصفها ..

كائنات أحاطت بهما ..

وصرخ (نور) :

ـ احترسا .

أو إنه أراد هذا ..

إلا أن الصرخة تفجرت فى أعماقه، ولم تتجاوز شفتيه ..

وبعدها، أظلمت الدنيا أمام عينيه ..

تمامًا .

★ ★ ★

٦ ـ تطــور ..

بدت عينا القائد الأعلى منتفختين، من قلة ساعات نومه، وهو يدخل حجرة الاجتماعات، فى مركز الأبحاث العلمية، قائلاً :

ـ أرجو أن يكون هناك تطور هام وخطر للغاية، يبرر إيقاظى فى ساعات الفجر الأولى أيها السادة .

تبادل العلماء نظرة صامتة، ثم قال كبيرهم :

ـ سيدى القائد الأعلى، إننا نرغب فى إنهاء عملية الكهف الغامض .

انعقد حاجبا القائد الأعلى، وهو يتساءل :

ـ بهذه السرعة ؟!

أومأ الرجل برأسه إيجابًا، وقال فى انفعال :

ـ وأبحاثنا تؤكد أنه قد يكون بداية لفناء حضارتنا كلها .

اتسعت عينا القائد الأعلى فى دهشة، وهو يغمغم :

ـ ذلك الكهف ؟!

أجابه أحد أفراد الفريق :

- بل قل : ذلك الكائن يا سيدى .

بدا صارمًا ، وهو يقول :

- آخر تقاريركم لم يجزم بهذا ، وإنما أشار ..

قاطعه أحد العلماء ، دون أن ينتبه إلى ما فى هذا ، من مجافاة لقواعد العمل والذوق :

- إنه ينبض ويتحرك أيها القائد الأعلى .

ازداد انعقاد حاجبى القائد الأعلى ، دون أن يجيب ، فتابع الرجل :

- ما بدا لنا ، هو أن ذلك الشىء لايشبه أى شىء فى عالمنا كله ، ونعنى بهذا عالمنا المعروف والمرصود ، فهو إما جاء من عالم آخر ، أو نتاج سلسلة مختلفة من التطور ، كما أشار الدكتور (أنور) ، فى تقريره الأولى .

غمغم القائد الأعلى ، وكأنما يحاول الاستيعاب :

- سلسلة مختلفة من التطور ؟!

أجابه أحد العلماء موضحًا :

- لدينا نظرية ، تفترض أن هذا الشىء نتاج تحوّر بيئى ، حدث منذ ملايين السنين ، بحيث جعل ذلك الكائن يتخذ هيئة الأشياء المحيطة به .. وهذا يعنى أنه لو انتقل إلى الصحراء ، لبات أشبه بتبة من الرمال ، وفى البحر سيصبح موجة عاتية ، و ....

قاطعه القائد الأعلى ، فى شىء من العصبية :

- كلام فارغ .

تبادل العلماء نظرة متوترة ، ثم قال رئيسهم :

- ربما يبدو لغير المتخصصين كذلك ، ولكننا نطبق قواعد عامة ، جعلتنا نعتبر ذلك الشىء ، أيًا كانت الصورة التى يبدو عليها ، مثالاً للكائن الحى .

تراجع القائد الأعلى فى مقعده ، وغرق فى التفكير بضع لحظات ، قبل أن يقول :

- ولو افترضنا أن هذا صحيح ، فكيف يمثل خطورة على حضارتنا كلها .

أجابه رئيس العلماء :

ـ نظريتنا تفترض أن تلك الشيء كان فى حالة كمون أو ثبات صناعى ، لملايين السنين ، ثم أيقظه شىء ما ، فبدأ يستعيد عافيته ، ولو تركناه يفلت من مكانه هذا ، فقد لانعثر عليه مرة أخرى أبدًا .

اندفع عالم آخر ، يقول :

ـ إلا لو تتبعنا آثار التدمير ، التى سيخلفها وراءه .

ارتجف صوت ثالث ، وهو يضيف :

ـ وصدقنى .. لن يكون هذا عسيرًا .

أكمل رابع :

ـ فالدمار سيكون شاملاً .. وهائلاً .

غمغم القائد الأعلى :

ـ إلى هذا الحد !!

نطقها ، واستغرق فى التفكير بضع لحظات ، قبل أن يعتدل ، ويسأل فى اهتمام قلق :

ـ وماذا تقترحون ، فى هذا الشأن ؟!

تبادل فريق العلماء نظرة أخرى ، حملت أضعاف ما حملته نظراتهم السابقة من التوتر ، قبل أن يجيب رئيسهم :

ـ أن نبادر نحن بالهجوم ؟!

سأله القائد الأعلى فى حذر :

ـ وما الذى يعنيه هذا بالضبط ؟!

مال رئيس فريق العلماء نحوه ، وحمل صوته كل توتره وانفعاله ، وهو يجيب :

ـ لو أردت نصيحتنا ، أرسل سربًا من المقاتلات ، المزودة بأقوى صواريخنا ، وانسف المنطقة كلها ، بلا تردد .

وانعقد حاجباه فى شدة ، وهو يضيف :

ـ وبلا إبطاء .

عاد القائد الأعلى يتراجع فى مقعده ، والتقى حاجباه فى تفكير عميق .. عميق للغاية ..

فقد كان عليه أن يتخذ قرارًا ..

أخطر قرار ، فى تاريخه كله ..

قرار شن حرب شاملة ، على عدو يجهل ماهيته وقدراته ..

تمامًا ..

★ ★ ★

كل شىء كان هادئًا ..

صامتًا ..

عميقًا ..

الصخور تمتد إلى مدى البصر ..

صخور عجيبة ..

غامضة ..

وحمراء ..

حمراء بلون الدم ..

وبكل حذر الدنيا ، تحرّك (نور) بين تلك الصخور ..

لو أنها كانت صخورًا ..

فعلى الرغم من شكلها الجامد الصلب ، كانت كلها تنبض ..

تنبض كما لو كانت قلوبًا صغيرة ..

وكبيرة ..

وضخمة ..

وعلى مدى البصر ، رأى (نور) فتحة كبيرة ..

فتحة مضيئة ..

واسعة ..

ومدخلها كان أشبه بفكرة وحش رهيب ..

وحش خرافى كاسر ، يرغب فى أن ينقض ، ويلتهم ، ويفترس ..

بلا رحمة ..

وفى صعوبة ، راح (نور) يدفع قدميه إلى الأمام خطوة ..

فثانية ..

فثالثة ..

كانت قدماه ثقيلتين ..

بطيئتين ..

مؤلمتين ..

ولكن شيئًا ما فى أعماقه ، أنبأه أنه سيجد أجوبة كل تساؤلاته ، عند تلك الفتحة المضيئة ..

لذا ، فقد استجمع كل إرادته ، وسار ..

وسار ..

وسار ..

وعلى الرغم من أنه قد قطع مسافة طويلة ، إلا أن تلك الفتحة المضيئة بدت بعيدة .

بعيدة للغاية ..

وكان ضوءها يخبو ..

ويخبو ..

ويخبو ..

وهذا يعنى أن عليه أن يسرع ..

ويسرع ..

ويسرع ..

كان سباقًا مدهشًا ، بينه وبين الزمن ..

ولكن الفتحة كانت تبتعد ..

وتبتعد ..

وتبتعد ..

وفجأة ، وبلا مقدمات ، انطلق منها شعاع من الضوء ، سقط على عينيه مباشرة ، فانتفض جسده كله ، و ....

واستيقظ ..

استيقظ ، واعتدل بحركة مفاجئة ، جعلت (سلوى) تنهض من فراشها فى فزع ، قائلة :

ـ ماذا هناك يا (نور) ؟!

حدق (نور) فيها ، وفى شعاع الضوء ، الذى نفذ من فتحة الخيمة ، وسقط على عينيه ، ثم هتف :

ـ كم الساعة الآن ؟!

أجابته ، وهى تنهض إليه فى حذر :

ـ التاسعة والنصف صباحًا .. لقد رأينا أن نمنحك فرصة لنوم عميق ، حتى ....

قاطعها ، وهو يثب من فراشه :

- أين (نشوى) ؟!

أجابت فى توتر :

- فى الخارج .. إنها ..

لم ينتظر ليسمع جوابها ، وإنما اندفع خارج الخيمة ، وهو يهتف باسم ابنته ، إلا أن بصره وقع عليها وهى تجلس على صخرة قريبة ، وتضع جهاز الكمبيوتر المحمول على ركبتيها ، وأصابعها تعمل عليه فى سرعة ..

وعندما سمعت صوته ، التفتت إليه ، متسائلة فى قلق :

- ماذا حدث يا أبى ؟!

توقف فى مكانه ، وتلفت حوله فى توتر بالغ ، قبل أن يقول :

- من حسن الحظ ، أن شيئًا لم يحدث .

اقتربت (سلوى) منه ، وربتت على كتفه ، قائلة :

- قلت لك إننا نستطيع حماية أنفسنا يا (نور) .

غمغم :

- أنتما تتصوران هذا فحسب .

تبادلت (نشوى) نظرة صامتة مع أمها ، قبل أن تقول :

- لقد توصلت إلى أمر محير يا أبى ، بشأن هذا الكهف .

مطَّ شفتيه ، متمتمًا ، فى سخرية عصبية :

- أمر واحد ؟!

تجاهلت نبرته الساخرة ، وقالت :

- منذ عدة أعوام ، وبعد زوال الاحتلال(*) ، قام المسئولون بعملية مسح جيولوجية كاملة ، ثلاثية الأبعاد ، لـ (مصر) كلها ، ومن بينها (سيناء) بالطبع ، ولقد راجعت ذلك المسح ، عبر شبكة المعلومات العامة ، والسرية أيضًا ، وفوجئت بأمر لم أتوقعه قط .

التقط (نور) نفسًا عميقًا ، وقال :

- إن ذلك الكهف لم يكن هنا من قبل .. أليس كذلك ؟!

بدت الدهشة واضحة ، فى ملامحها وصوتها ، وهى تقول :

- كيف استنتجت هذا ؟!

(*) راجع قصة (الاحتلال) .. المغامرة رقم (٧٦) .

تنهد فى توتر ، وقال ، وهو يتلفت حوله مرة أخرى :

ـ فى هذه المرة بالذات ، أصبحت أفترض كل ما لا يمكن توقعه .

ثم توقف ببصره عند الصخرة الكبيرة ، التى تخفى مدخل الكهف ، قبل أن يضيف :

ـ وأظن أنه من الأفضل أن نفكر بهذا الأسلوب .

شعرت (سلوى) و(نشوى) بالقلق ، من ذلك الصمت العميق ، الذى استغرق فيه ، بعد عبارته الأخيرة ، قبل أن يرفع رأسه فى اعتداد ، قائلاً :

ـ نعم .. هذا ما ينبغى فعله .

قالها ، وربت على مسدسه الليزرى ، وانحنى يلتقط مصباحًا ضوئيًا ، فسألته (سلوى) فى توتر :

ـ هل سنستكشف ذلك الكهف مرة أخرى ؟!

أجابها ، دون أن يلتفت إليها :

ـ لا تستخدمى صيغة الجمع يا (سلوى) .

ثم التفت إليها ، مضيفًا :

ـ سأذهب وحدى .

هبّت (نشوى) واقفة ، وهى تهتف :

ـ أبى ..

قاطعها فى صرامة :

ـ ستبقيان أنتما هنا ، وترصدان كل خطوة من خطواتى ، بكل السبل المتاحة ، فى كل ثانية .

هتفت (سلوى) ، معترضة :

ـ وماذا لو تعرضت لـ ...

قاطعها أيضًا ، قائلاً :

ـ كل ما يمكن رصده ، قد يصنع فارقًا .

وشدّ قامته ، وهو يضيف بمنتهى الصرامة :

ـ ثم إن هذا أمر .

تبادلتا نظرة أكثر توترًا ، ثم تمتمت (سلوى) ، ودموعها تمتزج بكلماتها :

ـ انتبه لنفسك جيدًا .

غمغم (نور) فى حزم :

ـ سأبذل قصارى جهدى .

ثم أشار إلى جهاز الاتصال ، مضيفًا :

ـ ولنبق على اتصال طوال الوقت .

قالت (نشوى) مرتجفة :

ـ بالتأكيد .

حاول أن يبتسم ، وهو يتطلع إلى زوجته وابنته ، ثم أشاح بوجهه عنهما ، ويممه شطر الكهف ..

وفى همة ونشاط ، راح يتسلق ..

ويتسلق ..

ويتسلق ..

وعندما بلغ مدخل الكهف ، توقف يتطلع إلى الشكل الوحشى ، قبل أن يضغط زر جهاز الاتصال الخاص ، قائلاً بلهجة آمرة :

ـ ابدأا الرصد .

وبأصابع مرتجفة ، ضغطت (سلوى) أزرار جهازها ..

وبدأت الرصد ..

بكل السبل المتاحة ..

أما (نور) ، فقد التقط نفسًا عميقًا ، ثم دخل الكهف ، وهو يضىء مصباحه القوى ، ويمسك مسدسه الليزرى فى تحفز ..

وفى جرأة منقطعة النظير ، وعلى الرغم من علمه بما قد يواجهه ، دلف (نور) داخل الكهف ..

وبدأ رحلة رهيبة ..

رحلة فى قلب الغموض ..

* * *

انتقل توتر القائد الأعلى إلى رئيس الجمهورية نفسه ، بعد أن استمع إليه فى مكتبه ، فى القصر الجمهورى ، وتراجع فى مقعده ، متسائلاً بكل القلق :

ـ أيصرون على أنه الحل الوحيد ؟!

أومأ القائد الأعلى برأسه إيجابًا ، وقال :

- إنهم يخشون العواقب الوخيمة يا سيادة الرئيس .

حكَّ الرئيس ذقنه مفكرًا ، وتساءل :

- وماذا عن رد الفعل ؟!

هزَّ القائد الأعلى رأسه ، مجيبًا :

- لا أحد يمكنه توقعه يا سيادة الرئيس .

اعتدل الرئيس فى مقعده ، قائلاً فى صرامة متوترة :

- وماذا لو أن هجومنا هذا أيقظ قوة لا قبل لنا بها ؟! ماذا لو جاء رد الفعل ، ليفوق كل قدراتنا وقوتنا .

غمغم القائد الأعلى :

- لست أعتقد الأمور يمكن أن تبلغ هذا الحد يا سيادة الرئيس .

سأله الرئيس فى حدة :

- وماذا لو بلغته ؟!

شدَّ القائد الأعلى قامته ، فى وقفة ذكرته بأيام خدمته فى القوات المسلحة ، وهو يجيب :

- إنها حرب حتمية يا سيادة الرئيس ، وأيًا كانت عقباتها ، لايمكننا أن نمتنع عن خوضها ، فالحرب ، أيًا كانت خسائرها ، تحمل احتمال النصر والهزيمة ، أما السكوت ، فسيعنى حتمية الهزيمة .. هذا أول ماتعلمناه ، فى القرارات العسكرية .

استغرق الرئيس فى التفكير بضع لحظات ، وغمغم ، وكأنه يحدث نفسه فقط :

- المشكلة أننى مسئول عن أمن وحياة ملايين المصريين ، ومن العسير للغاية اتخاذ قرار ، يعرض أمنهم أو حياتهم للخطر .

قال القائد الأعلى فى حزم :

- كلا الأمرين ، يمكن أن يعرض أمنهم وسلامتهم وحياتهم للخطر يا سيادة الرئيس .

ثم مال نحو الرئيس ، مضيفًا :

- هذه هى الحرب .

التقى حاجبا الرئيس ، وتراجع فى مقعده ، وشبك أصابع كفيه أمام وجهه ، وغرق فى التفكير طويلاً .

طويلاً جدًا ..

كان الأمر عسيرًا للغاية ، بالنسبة له ..

بل ربما كان أخطر قرار فى حياته ..

أخطرها على الإطلاق ..

إنه يواجه خطرًا ، يجهل ماهيته ..

وحدوده ..

وأبعاده ..

ومساحته ..

خطر ، يرى فريق من أقوى وأمهر علمائه ، أنه قد يمثل خطرًا ، ليس على مصير (مصر) وحدها وإنما على مصير العالم كله ..

ولكن عقله يتوقف دومًا ، عند كلمة (قد) هذه ..

فاتخاذ قرار بالحرب ، ليس بالأمر الهين أبدًا ..

حتى لو أنك تملك كل المعلومات عن خصمك ..

الحرب تعنى الدمار ..

والهلاك ..

والموت ..

وصراخ آلاف الجرحى .. وملايين المصابين ..

ودموع الثكالى ..

والأيتام ..

وزيادة نسب العجز ..

والفقر ..

واستهلاك الغذاء ..

والموارد ..

والمدخرات ..

باختصار ، الحرب تعنى العودة خمس سنوات إلى الخلف ..

على الأقل ..

ولاتخاذ قرار كهذا ، لاينبغى أن تحوى المعلومات ، كلمة (قد) ..

بل ينبغى أن تكون معلومات كافية ..

وافيـة ..

شافية ..

ومؤكدة ..

فما بالك ، لو أنها شحيحة ..

ضئيلة ..

ومنعدمة ..

القرار كان خطيرًا ..

وإلى أقصى حد ..

ولكن القائد الأعلى قال ، فى توتر ملحوظ :

ـ ليس لدينا وقت للتردُّد يا سيادة الرئيس .

رفع الرئيس عينيه المتوترتين إليه ، وسأله :

ـ متى وصل آخر تقارير (نور) ؟!

اعتدل القائد الأعلى ، مجيبًا :

ـ نحن فى انتظـاره .

وهنا ، بدا الرئيس حاسمًا ، حازمًا ، وهو يضع كفيه على سطح مكتبه ، قائلاً :

ـ سنتخذ القرار بعد وصوله بإذن الله .

انعقـد حاجبا القـائد الأعلى بشدة ، كمـا لو أن قرار الرئيس لم يرق لـه ، وقال فى توتر :

ـ وماذا لو لم يصل أبدًا ؟!

اتسعت عينا الرئيس ، وكأنما يهوله مجـرد التفكير فى هذا الاحتمال ، ثم عاد يعقد حاجبيه ، مجيبًا فى صرامة :

ـ سنعتبر هذا تقريرًا سلبيًّا .

تساءل القائد الأعلى ، وكأنما يرغب فى تأكيد الأمر :

ـ وعندئذ .

صمت الرئيس لحظـة ، ثـم شدّ قامتـه ، مجيبًا فـى حزم ، لم يخل من ارتجافة توتر واضحة :

ـ عندئذ سنضربُ ضربتنا .. بكل السبل الممكنة .

ولم يعلق القائد الأعلى هذه المرة ..

إطـلاقًا ..

* * *

ربما لم يشعر (نور) ، فى حياته كلها بمثل ذلك التوتر ، الذى شعر به ، وهو يلف وحده إلى ذلك الكهف الرهيب ..

قشعريرة باردة ، سرت فى أوصاله ، وهو يعبر مدخله ، وراحت تتصاعد ، وهو يتوغل فى أعماقه ..

وتتصاعد ..

وتتصاعد ..

لسبب ما ، بدا له الهواء داخل الكهف أكثر برودة ..

ورطوبة ..

وثقلاً ..

فعلى نحو عجيب ، راحت أنفاسه تتلاحق ..

وتتلاحق ..

وتتلاحق ..

لم يدر ما إذا كان هذا بفعل الانفعال ، أم الخوف ، أم شىء ما ، يكمن فى هواء ذلك الكهف ..

وجدرانه ..

وصخوره ..

وغموضه ..

ضوء مصباحه القوى ، كان يكشف الطريق أمامه ، إلى أعمق مدى ممكن ، وينقل إلى عينيه صورة صخور عادية ..

عادية للغاية ..

وعلى الرغم من هذا ، كان يشعر وكأنه محاط بعيون تراقبه ..

وترصده ..

وتتابعه ..

ألف ألف عين ..

على الأقل ..

وفى خطوات حذرة ، وعبر الأجهزة الموصولة بجسده ، راح يفحص الصخور ..

ويلتقط الصور ..

وينقلها إلى زوجته وابنته ..

« هل تسجلين كل شىء يا (سلوى) ؟! »

ألقى سؤاله فى خفوت وحذر شديدين ، وكأنما يخشى أن يسمعه شىء ما من حوله ، فأتاه صوت (سلوى) ، عبر أجهزة الاتصال الخاصة ، وهى تجيب :

- نعم .. أسجل كل شيء يا (نور)، ولايوجد مايثير الانتباه، بأى حال من الأحوال ..

تمتم :

- عجبًا !

واصل توغله، فى أعماق الكهف أكثر ..

وأكثر ..

وأكثر ..

وفى خيمة المتابعة والأبحاث، تعلق بصر (سلوى) بالمعلومات، التى تسجلها شاشة جهازها، وغمغمت فى حيرة :

- من هنا، يبدو كل شيء عاديًا .

سألتها (نشوى) همسًا :

- هل تعتقدين أنهم يدركون ما نفعله ؟!

صمتت (سلوى) بضع لحظات، قبل أن تجيب فى ثقة :

- أظنهم يدركون كل شيء .

لم تكد تتم عبارتها، حتى انتبهت حواسها كلها دفعة واحدة، واتسعت عيناها فى شيء من الذعر، وهى تحدق فى الشاشة ..

وكذلك فعلت (نشوى) ..

ففى ذلك الكهف، كان يحدث أمر عجيب ..

ومخيف ..

للغاية ..

* * *

٧ـ طبـول الحرب ..

« معذرة يا سيادة الرئيس .. لا يمكننا الانتظار .. »

نطق القائد الأعلى للمخابرات العلمية العبارة ، فى حزم شديد ، جعل رئيس الجمهورية يعتدل فى مقعده ، ويسأله بكل التوتر :

ـ حقًا ؟!

أجابه القائد الأعلى فى سرعة :

ـ لقد حاولنا الاتصال بالمقدم (نور) وفريقه ، إلا أننا لم ننجح فى هذا ، طوال الساعة السابقة .

قال الرئيس فى حزم :

ـ أرسلوا حوّامة لاستعادتهم .

هزّ القائد الأعلى رأسه فى حزم ، مجيبًا :

ـ حتى هذا ، يبدو مستحيلاً يا سيادة الرئيس .

حمل صوت الرئيس توترًا مضاعفًا ، وهو يسأل :

ـ ولمـاذا ؟!

صمت القائد الأعلى لحظة ، وكأنما يستجمع إرادته ، ثم أجاب :

ـ الأفضل أن ترى بنفسك ، سيادة الرئيس .

قالها ، ودفع أسطوانة مدمجـة ، عاليـة الكثافة(*) ، فى جهاز صغير ، فوق الهولوفيزيون ، فى حجرة مكتب الرئيس ، فتكونـت صورة ثلاثيـة الأبعاد للمنطقة التى تضم ذلك الكهف ...

صورة ، بدت هادئـة فى البدايـة ، قبـل أن تتكوّن دائرة عجيبة ، حول المنطقة كلها ..

دائرة راحت تتحرك ..

وتتحرك ..

وتتحرك ..

وخلال ثوان ، رسمت ما يشبه السوار ، حول المنطقة كلها ..

سوار له لون عجيب ..

لون أشبه بالطمى ..

أو بالدم ..

(*) DVD .

وبمنتهى الدهشة والتوتر ، تساءل الرئيس :

ـ ما هذا بالضبط ؟!

أجابه القائد الأعلى ، فى صرامة شديدة ، حاول بها أن يخفى نيران التوتر ، المستعرة فى أعماقه :

ـ العلماء يقولون إنها أشبه بعاصفة كهرومغناطيسية .

غمغم الرئيس :

ـ أشبه بها ؟!

أومأ القائد الأعلى برأسه ، قائلاً :

ـ نعم .. مجرد تشابه يا سيادة الرئيس ، فهى تشترك معها فى بعض الخواص ، مثل العزل الحرارى ، وعزل الاتصالات المباشرة والإلكترونية ، أما فيما عدا هذين ، فهى تختلف تمامًا ، عن أية ظاهرة طبيعية ، رصدها العلماء ، منذ بدء العلوم المدوّنة .

غمغم الرئيس ، فى حذر عصبى :

ـ أيعنى هذا أنها ..

لم يتم الرئيس عبارته ، إلا أن القائد الأعلى استوعب مغزاها على الفور ، فأجاب دون أن تكتمل :

ـ نعم يا سيادة الرئيس .. إنها ليست ظاهرة طبيعية .

اتسعت عينا الرئيس ، وتراجع فى مقعده ، فى بطء مبهوت ، وراح يحدق فى القائد الأعلى ، الذى تابع :

ـ خبراؤنا يرجحون أنها السبب الرئيسى ، فى عجزنا عن الاتصال بـ (نور) وفريقه ، ويؤكد بعضهم أن أفراد الفريق أنفسهم لم يشعروا بها بعد ، لأنها تدور فى نطاق بعيد للغاية عنهم ، ولكنهم سيدركون وجود أمر غير طبيعى ، مع بدء الخلل فى أجهزتهم ، أو مغيب الشمس ، أيهما أسبق .

سأله الرئيس ، فى خفوت ، يشف عن انفعاله :

ـ ألا تعتقد أنهم يعانون منها ؟!

هزّ القائد الأعلى رأسه نفيًا ، وأجاب :

ـ إنها تعزلهم تمامًا عنا ، فلا تصل اتصالاتهم لنا ، ولاتصل إشاراتنا لهم ، أما خارجها وداخلها ، فكل شىء يسير على ما يرام .. ستعمل أجهزتهم بمنتهى الكفاءة ، ما دامت ترصد ما يدور فى نطاق تلك الظاهرة ، حتى تتضاعف سرعتها ، وتبدأ فى التأثير فى الجانبين ، ولا أحد يمكنه التنبؤ ، بما يمكن أن يحدث ، إذا ما حاولت حوّامة عبور ذلك السوار الرهيب .

مال الرئيس إلى الأمام ، قائلاً :

ـ وكيف يمكننا أن نواجه أمرًا كهذا ؟!

أجابه القائد الأعلى فى حزم :

ـ منذ ساعة واحدة ، كان بإمكاننا مواجهتها بالمقاتلات والصواريخ ، أما الآن ، فسنحتاج إلى سلاح أقوى .

وصمت لحظة ، ثم أضاف فى صرامة :

ـ أقوى بكثير ..

وكان هذا يعنى حتمية اتخاذ القرار الحاسم ..

فورًا ..

* * *

كان (نور) يتوغل فى ذلك الكهف الغامض المخيف ، عندما بدأ ذلك الخرير يرتفع رويدًا رويدًا ..

وتوقف (نور) ..

لم يكن من الممكن أن يخطئ ذلك الصوت ..

أبدًا ..

إنه خرير مياه ..

مياه تنساب من مكان ما ..

وتوقف (نور) ، وراح يدير ضوء مصباحه فيما حوله ؛ بحثًا عن مصدر ذلك الخرير ..

ولكن كل الجدران كانت جافة ..

وكذلك الأرضية ..

جافة تمامًا ..

« (نور) .. ماذا يحدث عندك ؟! »

انطلق صوت (سلوى) بالجملة فجأة ، فى انفعال جارف ، عبر جهاز الاتصال الخاص ، فانتفض جسد (نور) ، ثم أجاب فى توتر :

ـ لست أرى شيئًا .. ماذا ترصدين أنت ؟!

هتفت فى انفعال :

ـ مياه .

انعقد حاجبا (نور) ، وهو يقول :

ـ إننى أسمع خريرها ، ولكننى لست أراها ..

جاءه صوت ابنته (نشوى) هذه المرة ، وهى تهتف :

- أبى .. الأجهزة التى تحملها ، تحدد موقعك بدقة .. وهذا يعنى أن المياه تحيط بك من كل جانب الآن .

ازداد التقاء حاجبى (نور) فى شدة ، وهو يدير مصباحه فيما حوله ، بكل توتر الدنيا ..

المكان كله كان جافًا ..

لا توجد به آثار للمياه ..

على الإطلاق ..

وعلى الرغم من هذا ، فصوت الخرير يعلو ..

ويعلو ..

ويعلو ..

ومرة أخرى ، هتفت (سلوى) مذعورة :

- (نور) .. إنها تطبق عليك .

حاول أن ينطق ..

أن يقول شيئًا ..

أى شىء ..

ولكن الكلمات لم تخرج من بين شفتيه ..

على الإطلاق ..

انفعاله الجارف حبس فى حلقه الجمل ..

والكلمات ..

والحروف ..

« أبى .. أأنت بخير ؟! »

حمل صوت (نشوى) كل توترها ، وهلعها ولوعتها ، وهى تصرخ بالسؤال ، فقاوم (نور) ذلك الشىء ، المطبق على لسانه ..

قاوم ..

وقاوم ..

وقاوم ..

وبكل قوته ، هتف :

- لا توجد مياه ..

وعلى الرغم منه ، خرج صوته محشرجًا ..

مختنقًا ..

خافتًا ..

عصبيًا ..

يائسًا ..

وبكل هلعها ، صرخت (سلوى) ، عبر جهاز الاتصال الخاص :

ـ عد يا (نور) .. عد بأقصى سرعة .. أرجوك .

ودون أن ترجوه ، كان هذا ما قرره هو بالضبط ..

أن يغادر ذلك الكهف الرهيب ..

بأقصى سرعة ..

وبأى ثمن ..

ولكن شيئًا ما كان يكبل قدميه ..

وصوت الخرير كان يعلو ..

ويرتفع ..

ويشتد ..

ويصم أذنه ..

ويضيع تركيزه تمامًا ..

وعلى الرغم من هذا ، كان كل شىء من حوله جافًا ..

تمامًا ..

وكان على (نور) أن يستجمع إرادته ..

وقوته ..

وعزمه ..

وحزمه ..

و ....

وينطلق ..

وفجأة ، وجد نفسه يصرخ :

ـ سأعود .

قالها ، وقدمه تندفع إلى الأمام ، فى طريق العودة ..

ومع هبوطها ، على أرضية الكهف ، سمع صوت ارتطامها بالمياه وتوقف دفعة واحدة ..

وانتفض جسده بعنف ..

بمنتهى العنف ..

وبكل ذهول الدنيا ، حدق فيما كان من حوله جافًا تمامًا ، منذ لحظة واحدة ..

بل منذ أقل من لحظة ..

ففجأة ، بدت له الأرض مغمورة بالمياه ..

والجدران كلها تنزف ..

تنزف بآلاف من شلالات المياه الصغيرة ..

وصوت الخرير يعلو ..

ويعلو ..

ويعلو ..

أما قدماه ، فكانتا تغوصان فى مياه ، ارتفاعها شبر كامل على أقل تقدير ..

وتضاعف ذهول (نور) ..

بل بلغ ذروته ..

فالمياه كانت تنهمر من الجدران فى تدفق مدهش ..

ومنسوبها فى أرضية الكهف يعلو ..

ويعلو ..

ويعلو ..

ووفقًا لكل القواعد العلمية ، كان هذا مستحيلاً ..

فالكهف مفتوح على الخارج ..

وفتحته فى منسوب يقل عن أرضيته ..

هذا يعنى أنه من المحتم أن تندفع تلك المياه الغزيرة خارجه ، فى سرعة مدهشة ..

لا أن تعلو على هذا النحو ..

ولثوان ، وقف (نور) يحدق فيما يحدث فى ذهول ، قبل أن ينتفض جسده كله فى عنف ، وهو يهتف :

- إنها ليست مياه طبيعية .

نطقها ، وهو يلتقط علبة شفافة من حزام أدواته ، وينزع غطاءها ، ثم ينحنى ليلتقط فيها كمية من تلك المياه..

كانت قد بلغت ركبتيه ، وبدت باردة ..

باردة كالثلج ..

وفى حرص زائد ، ثبت (نور) العلبة مرة أخرى ، فى حزام أدواته ، ثم راح يتحرك ، على ضوء مصباحه ، ليشق طريق العودة ..

مسيرته تلك ، أكدت له أنها ليست مياهًا طبيعية حتمًا ..

إنه يدفع جسده عبرها فى صعوبة ، كما لو أنها نوع مشتق من الزئبق ، وليس مجرد مياه عادية ..

وفى أعماقها ، كانت هناك قوة عجيبة ، تعيق تقدمه ..

شعر وكأن آلاف الأيادى المائية تمسك قدميه ..

وساقيه ..

وركبتيه ..

إنها ليست مياه عادية حتمًا ..

« أبى .. إننا لم نعد نراك .. »

صرخت (نشوى) بالعبارة ، عبر جهاز الاتصال الخاص ، فتوقف ، هاتفًا :

ـ أنا هنا يا (نشوى) .

لم يبد أنها قد التقطت صوته ، وهى تهتف فى رعب :

ـ أين أنت ؟

التقى حاجباه مرة أخرى ، وهو يهتف :

ـ (نشوى) .. (سلوى) .. هل تسمعاننى ؟!

أتاه صوتهما تتحدثان ، و(سلوى) تقول فى هلع :

ـ رباه ! أين ذهب ؟!

أجابتها (نشوى) مرتجفة :

ـ لست أدرى يا أمى .. كل شىء متشابك ومرتبك هنا .. ماذا يحدث ؟!

خلع (نور) جهاز الاتصال فى عصبية ، وفحصه بسرعة ، قبل أن تتضاعف حيرته أكثر ..

وأكثر ..

وأكثر ..

كل شىء فى جهاز الاتصال عنده ، يعمل بمنتهى الكفاءة ..

دليل الأعطال الإلكترونى لا يشير إلى خلل ..

أى خلل ..

وهو يسمعهما فى وضوح ..

المشكلة فى أجهزتهما إذن ..

هذا هو التفسير الوحيد ..

وكمحاولة أخيرة ، وبكل قوته ، صرخ :

- (سلوى) .. (نشوى) .. أنا هنا .

لم يبد من حوارهما أنهما تسمعانه ، على الرغم من أن الجهاز ظل ينقل إليه حديثهما فى وضوح ..

كانت (سلوى) تقول :

- لقد أصابه مكروه .. أنا واثقة من هذا .

أجابتها (نشوى) :

- أمى .. لن أحتمل الفكرة .. ربما هو عيب فى نظم الاتصال فحسب ..

غمغمت (سلوى) مرتجفة :

- ربما ، ولكننى ..

بترت عبارتها بغتة ، وسمعها (نور) تهتف :

- رباه ما هذا ؟! ماذا يحدث فى الخارج ؟

وهتفت (نشوى) بعدها :

- ما هذه الأضواء ؟!

سمع وقع أقدامهما ، وهما تعدوان خارج خيمة الأبحاث ، فصرخ عبر جهاز الاتصال :

- لا .. لا تذهبا .

كانت المياه قد بلغت وسطه ، إلا أنه لم ينتبه إلى هذا ، وهو يدفع قدميه دفعًا ، فى تلك المياه ، التى صارت أكثر شبهًا بالزئبق(*) ، وقد امتلأ قلبه برعب لا مثيل له ..

رعب ، اشترك فيه ذلك الكهف ..

ومياهه الثقيلة ..

والظلام ..

والغموض ..

والخرير ..

والتساؤل ..

وبينما يحاول الاهتداء بجهاز تحديد الاتجاه الرقمى ، للعودة إلى مدخل الكهف ، نقل إليه جهاز الاتصال الخاص صوتًا ، توقف له قلبه بين ضلوعه ..

(*) الزئبق : عنصر فلزى ، يقع فى الصف الثانى من الجدول الدورى ، عدده الذرى (٨٠) ، ووزنه الذرى (٢٠٠,٥٩) ، ونقطة انصهاره (- ٣٨,٨٧°م) ويتميز عن باقى العناصر بخاصيتين غير عاديتين ، فهو المعدن الوحيد السائل ، فى درجة حرارة الحجرة ، وهو أثقل سائل معروف ، وكثافته عالية جدًا .

صوت صرخة رعب بعيدة ، من (سلوى) و(نشوى) ..
وبكل انفعاله ، صرخ :

ـ (سلوى) .. (نشوى) .. أين أنتما ؟!

ولكنه ، فى هذه المرة ، لم يتلق جوابًا ..
أى جواب ..

* * *

« سنستخدم قنبلة نووية محدودة .. »

نطق الرئيس العبارة فى حزم ، فانعقد حاجبا القائد الأعلى ، وهو يغمغم :

ـ قنبلة نووية ؟!

أومأ رئيس الجمهورية برأسه إيجابًا ، وقال فى توتر حازم :

ـ علماؤنا ابتكروا ، منذ فترة ليست بالقصيرة ، ذلك النوع من القنابل النووية ، محدود الإشعاع والتأثير ، وأفضل ما فيها هو أنه يمكن إلقاؤها ، من ارتفاع كبير جدًّا ، ولقد حلقت طائرة خاصة بالفعل ، منذ دقيقة واحدة ، حاملة قنبلتين من ذلك الطراز ، لتلقياهما فوق الهدف مباشرة .

اتسعت عينا القائد الأعلى ، وهو يهتف :

ـ رباه ! (نور) وفريقه ! كان ينبغى أن نمنحهما فرصة للنجاة !

أجاب الرئيس ، فى توتر شديد :

ـ إننا نعجز تمامًا عن الاتصال بهم ، وتحذيرهم ، أو حتى إبلاغهم .

وصمت لحظة ، ثم أضاف فى عصبية :

ـ ثم إن مصير الحضارة كلها فى كفة ، ومصير (نور) ورفاقه فى الكفة الأخرى ، فمن تظنهم يختارون ، لو أنهم هم أصحاب القرار .

صمت القائد الأعلى بضع لحظات ، ثم أجاب فى حزم :

ـ أظنهم قد حسموا اختيارهم ، أكثر من مرة من قبل يا سيادة الرئيس .

انخفض صوت الرئيس بشدة ، وهو يهمس :

ـ بالضبط .

ثم استعاد صوته وحزمه ، وهو يضيف :

ـ على أية حـال ، بعد ست عشرة دقيقة بـالضبط ، سيحسم الأمر كلـه ، وسنكون قد أنقذنـا جيلنـا ، وكـل الأجيال القادمة .

تمتم القائد الأعلى فى أسى :

ـ وخسرنا أعظم فريق علمى ، فى كل الأجيال .

التقط الرئيس نفسًا عميقًا ، وتنهد فى قوة ، قبل أن يغمغم :

ـ أكان هناك حل آخر ؟!

كتم القائد الأعلى كل انفعالاته ، عبر غصـة فى حلقـه ، وهو يجيب :

ـ كـلاً ..

وصمت لحظة ، ثم أضاف ، بكل مرارة الدنيا :

ـ للأسف .

وبدت كلمته أشبه بدمعة ..

دمعة كبيرة ..

ساخنة ..

* * *

كل رعب الدنيا تجمد ، فى قلب (نور) ..

وبكل قوته ، راح يشق طريقه ..

ويضرب المياه بقدميه ..

ويتقدم ..

ويتقدم ..

ويتقدم ..

ووفقًا لجهاز تحديد الاتجـاه ، كـان المفترض أن يجد مدخل الكهف ، عند المنحنى التالى ..

ولكن المياه كانت تزداد كثافة أكثر ..

وأكثر ..

وأكثر ..

كل خطوة يخطوها ، أصبحت تحتاج إلى جهد ، يفوق البشر ..

كل خطوة ..

لذا ، فقد بـدأ (نـور) يلهث ، ويشعر بآلام فى فخذيه ، وساقيه ، وقدميه ..

وبلغ المنحنى ..

ورأى مدخل الكهف ..

والسماء من خلفه ..

و ....

وتجمد فى مكانه ..

فمدخل الكهف كان هناك ..

ولكن السماء التى بدت من خلفه ، لم تكن تشبه أية سماء ، رآها فى حياته ..

حتى سماء (أرغوران)(*) ..

كانت أشبه بشفق قطبى(**) ، اشتعلت فيه نيران ، من مختلف الألوان ..

(★) راجع قصة (جحيم أرغوران) .. المغامرة رقم (٥٩) .

(★) الشفق القطبى : أضواء قطبية ، تشاهد بصفة أساسية ، فى ارتفاعات عليا ، فى كل من القطب الشمالى (الشفق الشمالى) ، والقطب الجنوبى (الشفق الجنوبى) ، ويظهر غالبًا فى شكل حزمة ضوئية ، مختلفة الألوان ، سببها دخول الجسيمات الشمسية ، فى مجالات المغناطيسية الأرضية .

نيران مستعرة ..

رهيبة ..

متصلة ..

هائلة ..

ووسط كل هذا ، كانت تنطلق صواعق ..

صواعق بالعشرات ..

أو المئات ..

أو الآلاف ..

ولكن المدهش ، أن هذا كله يحدث بلا صوت ..

بلا أدنى صوت ..

تمامًا ، كما لو أنها فيلم يعرض ، على شاشة هائلة ، فى دار للصم والبكم ..

وأمام ذلك المشهد الرهيب ، تجمد (نور) فى مكانه لحظات ..

لقد دخل الكهف ، منذ ساعة واحدة ، وترك خلفه عالمًا عاديًا ..

معروفًا ..

ومألوفًا ..

فماذا حدث ؟!

مــاذا ؟!

مــاذا ؟!

وعلى امتـداد بصـره ، شـاهد الميـاه ، التـى تجـاوزت وسطه ، وقد توقفت عند مدخل الكهـف ، كما لو أن حـاجزًا خفيًا ، قويًا ، شفافًا ، يمنعها من الاندفاع خارجه ..

المشهد كله كان مخالفًا لكل ما اعتاده (نور) فى حياته ..

أو حتى فى مغامراته ..

أو خياله ..

كل شىء ..

وبكل انفعاله ، صرخ :

ـ ماذا يحدث ؟! ماذا يحدث ؟!

بدا وكأن كثافة المياه المحيطة به قد تضاعفت أكثر ..

وأكثر ..

وأكثر ..

وكانت أنفاسه مجهدة ..

مرهقة ..

متقطعة ..

ولكن إرادته ، وذعره على زوجته وابنتـه ، كانـا يفوقان كل مايشعر به ، مما جعل يدفع قدميه ، عبر ذلك السائل ، الذى بدا أشبه بجيلاتين نصف متماسك ..

قاتل ..

وقاتل ..

وقاتل ..

وأخيرًا ، بلغ مدخل ذلك الكهف ..

وبدت له الصورة رهيبة أكثر ..

منسوب المياه كان ينتهى عند المدخل تمامًا ، وشفافيتها تجعله يرصد تلك السماء الرهيبة خلفها ..

ولكنه لم يستطع رؤية القاع ..

لم يستطع رؤية ذلك الوادى الصخرى ، حيث (سلوى) و(نشوى) ، وخيام الأبحاث ..

لذا ، فقد دفع جسده مرة ثانية ..

وثالثة ..

ورابعة ..

وأخيرًا ، أصبح عند المدخل مباشرة ..

خطوة واحدة ، ويصبح خارج المكان ..

خطوة ، بدت عسيرة ..

عسيرة للغاية ..

فالمياه من حوله صارت سميكة ..

متماسكة ..

قاسية ..

باردة كالثلج ..

وأصبح تحريك قدميه مستحيلاً ..

حتى لخطوة واحدة ..

لقد حاول ..

وحاول ..

وحاول ..

ولكنه لم يستطع أن يخطو تلك الخطوة قط ..

وبكل القهر والعجز فى أعماقه ، صرخ :

ـ لماذا ؟! لماذا تفعلون هذا بنا ؟!

لمـــاذا ؟!

ترددت صرختة فى كل أنحاء الكهف ..

وارتجفت لها المياه ..

ارتجفت كما لو أنها قد سمعت ..

وفهمت ..

واستجابت ..

وتفاعلت ..

وبلا مقدمات ، راود (نور) شعور عجيب ..

شعور بأنه ليس وحده ..

بل وسط كائنات عديدة ..

كائنات لاحصر لها ..

وسط شعب كامل ..

أو حضارة كاملة ..

ومرة أخرى ، صرخ :

ـ لماذا ؟! لمـاذا ؟!

وقبل حتى أن تكتمل صرخته هـذه المـرة ، تموجـت المياه بعنف شديد ..

ثم راحت حرارتها ترتفع ..

وترتفع ..

وترتفع ..

وتحرر جسده منها دفعة واحدة ..

لم يدر ماذا حدث ، ولكنـه وثب ؛ ليقطع تلك الخطوة الأخيرة ..

وتجاوز مدخل الكهف ..

وأصبح خارجه ..

ثم توقف ذاهلاً ، وعيناه تتسعان عن آخرهما ..

فما رآه ، فور خروجه من الكهف كان مذهلاً ..

بكل الصور ..

* * *

٨ ـ لغـز الألغاز ..

« مــاذا ؟! »

هبَّ رئيس الجمهورية من مقعده ، فى حركة عنيفـة ، وهو يهتف بالكلمة ، قبل أن يحدق فى وجه القائد الأعلى للمخابرات العلمية ، قائلاً فى انفعال :

ـ أعد ما قلته مرة أخرى يا رجل .

تنحنح القائد الأعلى ، فى محاولة لتخفيف توتره ، قبل أن يجيب :

ـ تلك الظاهرة ، التى لم نجـد لهـا تفسيرًا .. توقفت دفعة واحدة يا سيادة الرئيس .

عاد الرئيس يحدق فيه بضـع لحظـات ، قبل أن يهز رأسه فى قوة ، متسائلاً فى عصبية :

ـ ماذا تعنى بأنها قد توقفت ؟!

هزَّ الرجل كتفيه ، وهو يجيب فى لهجة ، شفَّت عن حيرته وقلقه :

- كان علماؤنا يتابعون رصدها وتسجيل تطوراتها، عندما توقفت بغتة، وبلا مقدمات، وعاد كل شىء إلى ما كان عليه؛ وكأن شيئًا لم يكن .

حدق الرئيس فى وجهه للمرة الثالثة، وهو يقول :

- هكذا ؟! بهذه البساطة ؟!

تنهد القائد الأعلى فى عمق، قبل أن يجيب :

- المدهش والمحير يا سيدة الرئيس أن هذا قد حدث بالفعل بهذه البساطة، حتى إنه أذهل علماءنا تمامًا .

عاد الرئيس إلى مقعده، متمتمًا بأنفاس مبهورة :

- هذا كفيل بإذهال أى مخلوق .

قال القائد الأعلى فى حزم، لم يخل من توتره :

- ذهول العلماء يختلف، يا سيادة الرئيس؛ فهو ذهول يستند إلى أسس وقواعد علمية .

تمتم الرئيس :

- حقًا ؟!

تابع القائد الأعلى فى انفعال :

- كل الظواهر الطبيعية، يا سيادة الرئيس، لا يمكن أن تنشأ من العدم، أو تنتهى إلى فراغ مباغت .. هناك حتمًا مقدمات وتوابع(*)، فلكى تنشأ ظاهرة ما، لابد وأن تمنحنا بعض العلامات والمؤشرات، التى تنتبأ بقدومها، والتى تشعر بها بعض الحيوانات، فتبدأ فى التوتر، على نحو يشف عن قرب وقوع الحدث، وعندما تنتهى الظاهرة، أيًا كانت ماهيتها، تترك خلفها مرحلة انتقالية، تعود فيها الأمور إلى سابق عهدها، أما فى تلك الظاهرة، التى جزم الكل بأنها ليست طبيعية حتمًا، نشأ كل شىء بلا مقدمات، وانتهى دفعة واحدة، بلا توابع .

صمت الرئيس لحظة حائرة، قبل أن يتساءل :

- وما الذى يمكن أن يعنيه هذا ؟!

هز القائد الأعلى رأسه، مجيبًا :

- لا أحد يعلم .

وللمرة الرابعة، حدق الرئيس فيه لحظات، إلا أنه لم يلبث أن هبَّ من مقعده بحركة حادة، هاتفًا :

(*) حقيقة علمية .

ـ ولكن القنبلة النووية المحدودة .

اتسعت عينا القائد الأعلى عن آخرهما ، وكأنما تذكر هذا الأمر على التو ، وهتف :

ـ رباه !... (نور) وفريقه ..

ثم مال على مكتب الرئيس ، مستطردًا بكل الانفعال :

ـ لابد من إلغاء عملية محو تلك المنطقة فورًا يا سيادة الرئيس .. لابد .

امتقع وجه الرئيس ، وهو يقول :

ـ ولكن .. ولكن هذا مستحيل !

ألقى القائد الأعلى نظرة سريعة على ساعته ، قبل أن يقول ، فى انفعال متصاعد :

ـ ليس مستحيلاً يا سيادة الرئيس .. بقيت دقيقتان ، على لحظة القصف .. يمكنك أن تأمر بإلغاء المهمة ، وعودة الطائرتين ، وسيكون لدينا حتمًا ما يكفى من الوقت لـ ...

قاطعه الرئيس فى حدة :

ـ أخبرتك أن هذا مستحيل !

هتف القائد الأعلى فى حدة ، وكأنما أنساه الانفعال أنه فى حضرة رئيس الجمهورية :

ـ ولماذا مستحيل ؟!

تضاعف توتر الرئيس ، وهو يشيح بوجهه ، قائلاً :

ـ فى الحالات القصوى ، عندما يتعلق الخطر بأمر نجهل ماهيته ، تم اعتماد أسلوب خاص للغاية ، فى وزارة الدفاع .. نحن نتروى كثيرًا فى اتخاذ قرار الهجوم ، أو توجيه الضربة الوقائية ، وعندما يستقر رأينا عليهما ، يصدر الأمر بوساطة كود خاص وسرى ، وشديد التعقيد ، يتم تأمينه رقميًا وإلكترونيًا ، من خلال ثلاثة من أجهزة الكمبيوتر المتقدمة ، فى ثلاثة أماكن سرية مختلفة من البلاد ، وهنا تنطلق الطائرات لتنفيذ الأمر ، وتنقطع اتصالاتها تمامًا بنا ، بحيث لا يتمكن أى خصم متقدم من خداعها ، وإقناعها بالعدول عن تنفيذ الضربة ، بأية وسيلة كانت .

احتقن وجه القائد الأعلى ، وهو يقول :

ـ سيدى الرئيس .. هل تعنى أن ...

أجاب الرئيس ، قبل أن ينتهى القائد الأعلى من سؤاله :

ـ نعم .. لا توجد أية وسيلة فى الوجـود ، لمنـع ذلك القصف ، أو حتى تغيير الهدف ..

واتسعت عينا القائد الأعلى ، بكل ارتياع الدنيا ..

فعلى الرغم من أن القصف بالقنابل النووية المحدودة ، كـان يبدو لـه فـى البدايـة الحل الأمثـل ، لهذا الموقـف العجيب ، إلا أنه ، فـى تلك اللحظـات ، أصبح الوسيلة الوحيدة ، التى ستقضى على (نور) وفريقه ، وكل من ابتلعهم ذلك الكهف الغامض ..

بعد دقيقة واحدة ..

وإلى الأبد ..

* * *

خارج الكهف ، توقف (نور) يحدق فيما أمامه ، فى ذهول تام فالصورة التى توقعها ، لم تكن أبدًا تلك التى وجدها ..

على الإطلاق ..

ما رآه من داخل الكهف ، كان يوحى بأنـه قد انتقل إلى عالم آخر ، أو بعد آخر ..

بعد مختلف ..

وحشى ..

جهنمى ..

رهيـب ..

بعد لن يجد فيه شيئًا مما ألفه ، أو عرفه فى عالمه ..

ولكنه ، بوثبة واحدة ، وجد نفسه فى إطـار مختلـف تمامًا ..

فى عالمه ..

نفس العـالم الطبيعى ، الـذى تركـه خلفـه ، قبـل أن يدخل الكهف ..

سماء صافية ..

زرقاء ..

ممتدة إلى مدى البصر ..

وغيوم قليلة ..

بيضاء ..

متناثرة ..

وبين الجبال الثلاثة الضخمة فى المنطقة ، كان يمتد ذلك الوادى الصخرى المألوف ..

وفيه استقرت خيام الفريق ..

كل شىء ، كان يختلف تمامًا عما رآه من داخل الكهف ، منذ لحظة واحدة ..

كل شىء ..

وبحركة حادة ، استدار يتطلّع إلى ذلك الكهف ..

ثم تضاعف ذهوله ..

ألف مرة ..

فالكهف لم يكن قط كما تركه .

لقد كان هادئًا ..

صامتًا ..

ساكنًا ..

وجافًا !!

ودار رأس (نور) فى شدة ..

ما التجربة التى خاضها بالضبط ؟!

أوهم ما رآه ، وسمعه ، وخبره ؟!

مجرد وهم ؟!

مستحيل !

مستحيل !

وألف مستحيل !

لقد خاض الوهم وواجهه مرات عديدة من قبل .

وهو لم يكن بهذا الوضوح ..

أبدًا ..

ما رآه لم يكن وهمًا ..

يمكنه أن يقسم على هذا .

ألف مرة ..

أو أنه تصور هذا ..

للحظة واحدة ..

ثم لم تلبث ثقته هذه أن انهارت دفعة واحدة ..

كلاً ..

لا يمكنه أن يقسم بهذا ..

لا يمكنـه أن يثق مائة فى المـائة ، فى أن ما اختبـره ليس نوعًا جديدًا ، أو شديد التطور من الوهم ..

لا يمكنه هذا .

ولكن كل هذا لا يهم الآن ..

المهم هو (سلوى) .. و(نشوى) ..

وبكل سرعته وقدرته ، راح يهبط نحو المخيم الصغير ، وهو يصرخ :

- (سلوى) .. (نشوى) .. أين أنتما ؟!

لم يتلق أية استجابة من المخيم فتضاعف خوفه وهلعه أكثر ..

وأكثر ..

وأكثر ..

ولم تتوقف صرخاته لحظة واحدة ، وهو يصرخ باسميهما ..

كان أقصى ما يتمناه ، أن يكون ما هو فيه الآن جزءًا من الوهم ..

جزءًا من خيال ، يتجاوز كل الحقائق ..

ولكنه بلغ المعسكر ..

وانتفض جسده كله فى عنف ..

الأجهزة كلها كانت فى موضعها ، وكل البيانات التى التقطتها مسجلة ، على قرص مدمج صغير عالى الكثافة ، داخل جهاز (سلوى) ..

كل الخيام أيضًا كانت سليمة ..

ولكن (سلوى) و(نشوى) لم تكونا هناك ..

بل لم يكن لهما أدنى أثر ..

ووسط المخيم وقف (نور) ، يصرخ مكررًا بكل قوته :

ـ لماذا ؟! لماذا ؟!

دفن وجهه بين كفيه ، وجسده كله ينتفض على نحو عجيب ..

كان الموقف يفوق قدرته على الاحتمال ، لأول مرة فى حياته ..

لقد جاء يبحث عن مفقودين ، ففقد الجميع ..

(أكـرم) ..

(رمزى) ..

(سلوى) ..

وحتى ابنته (نشوى) ..

ولأول مرة ، يجد ذهنه عاجزًا عن التوصُّل إلى تفسير ..

أى تفسير ..

وبكل انفعاله ، صرخ :

ـ أهو وهم ؟! أهو مجرد وهم ؟!

كان يتمنى لو يرفع كفيه عن عينيه ، فيجد أن كل شىء قد عاد إلى أصله ، وأن كل ما حدث ، منذ وصولهم إلـى ذلك المكان مجرد وهم ..

أو حلم ..

أو خيال ..

ولكنه رفع كفيه على عينيه ، فوجد كل شىء على ما هو ..

واد صخرى جاف ..

خيام خالية ..

جبال شاهقة ..

صمت مطبق ..

وكهف مخيف ، يتطلع إلـى كل هذا بنظرة وحشية ساخرة ..

وشامتة ..

وبكل إرادته ، حاول (نـور) السيطرة علـى انفعالـه الجارف ، وهو يقول لنفسه :

ـ لا .. لا تفقد أعصابك وقدرتك على التركيز يا (نور) .. لاتمنح خصمك مايحتاج إليه لينتصر .. لاتستسلم لليأس .. لقد انتخبك القدر من بيـن جميع الموجودين لتبقـى .. هنـاك حكمة من هذا حتمًا .. هناك هدف ربـانى من بقـائك .. هيا يا (نور) .. ركـز أفكـارك .. استرجع كل مـا حدث منذ البداية .. كل الأحداث ، والمعلومات ، والتفـاصيل .. هيا يا (نور) .. افعلها .. افعلها كما فعلتها من قبل .

صمت ، وراح يستجمع إرادته ..

كل إرادته ..

ويعتصرها ، اعتصارًا ..

وفى أعمق أعماق تلافيف مخه ، الرمادية والبيضاء ، راح يسترجع كل التقارير ..

والتفاصيل ..

والأحداث ..

وحتى الكلمات ..

راح يسترجع ..

ويرتب ..

ويحلل ..

ويبحث عن روابط ..

ومنطق ..

وتفاسير ..

ثم فجأة ، توقف تفكيره كله عند نقطة واحدة ..

عينة السائل الثقيل ، التى حصل عليها من داخل الكهف ..

لو أنها موجودة ، فسيعنى هذا أن كل ما رآه لم يكن وهما ..

أما لو لم تكن هناك ..

لم يحاول إتمام العبارة فى ذهنه ، وهو ينتزع العلبة بسرعة ، من حزام أدواته ، ويتطلع إليها فى انفعال شديد ..

العينة كانت داخل العلبة الشفافة بالفعل ..

ولكنها لم تكن سائلة ..

أو حتى جيلاتينية ..

بل كانت جافة تمامًا ..

كانت أشبه بالرمال ..

نفس الرمال التى وطئها بقدميه ، داخل ذلك الكهف ..

وانتفض جسده كله فى عنف ..

ما الذى يمكن أن يعنيه هذا ؟!

هل أصابه خبل ما ، داخل ذلك الكهف ، وتوهَّم كل ما رآه ، وانحنى يأخذ عينة من الرمال ، متصورًا أنها سائل ما ؟!

ـ هـل ؟!

دار رأسه فى شدة ، وبدا له الأمر محيرًا أكثر ، وعيناه تزوغان فيما حوله ، قبل أن يتوقف بصره عند تلك البقعة ، التى يقع عندها ذلك الكهف ..

و .....

ارتفع رنين جهاز اتصاله الخاص فجأة ، فانتفض جسده فى عنف ، قبل أن يرفعه إلى شفتيه فى سرعة ، ويضغط زره ، هاتفًا :

ـ المقدم (نور) .

أتاه صوت القائد الأعلى ، وهو يهتف فى انفعال :

ـ (نور) .. حمدًا لله أن استعدنا الاتصالات أخيرًا .

قال (نور) ، فى دهشة عصبية :

ـ استعدتموها ؟! ماذا يحدث يا سيدى ؟!

أجابه القائد الأعلى ، بنفس الانفعال :

ـ كارثة يا (نور) .. كارثة ..

هتف (نور) ، وقد انتقلت إليه عدوى الانفعال :

ـ ماذا حدث ؟!

صاح القائد الأعلى ..

ـ سيقصفون منطقة الكهف ، بعد دقيقة واحدة يا (نور) ، بقنبلتين نوويتين محدودتين .

اتسعت عينا (نور) عن آخرهما ، ولم يستطع التفوه بحرف واحد ، فى حين تابع القائد الأعلى ، وانفعاله يتصاعد :

ـ لست أدرى ما الذى يمكنكم فعله يا (نور) ، ولكننا لانستطيع منع هذا .. رباه ! لقد قتلناكم يا (نور) .. قتلناكم ، إننا ...

وأنهى (نور) الاتصال دفعة واحدة ، وكأنما لا يحتمل سماع المزيد ..

وبحركة غريزية ، رفع عينيه إلى أعلى ، يبحث عن طائرتى القصف ..

المنطقة كلها ستفنى بعد أقل من دقيقة واحدة ..

ستفنى تمامًا ..

وسيفنى معها آخر أمل في عودة المفقودين ..

لو أن هذا كان ممكنًا ..

بل وستفنى معها حياته أيضًا ..

والوقت يمضى فى سرعة ..

فى أقصى سرعة ..

وما من مهرب من هذا ..

إلا ..

توقف بصره وتفكيره بغتة ، عند مكان واحد ، بدا أنه ، قد يحمل آخر أمل فى النجاة ..

ذلك الكهف ..

لم يدر ، لماذا قفز إلى ذهنه بغتة ، ولكن ربما لأن كل ما يتعلق به ، يخالف دومًا كل قواعد الطبيعة المألوفة ..

ربما ..

ودون أن يضيع لحظة أخرى ، فى تفكير إضافى ، أسرع (نور) يتسلق الجبل أمامه ، لبلوغ الكهف ..

وفى اللحظة نفسها ، وصلت طائرتا القصف إلى الهدف ، وحدد البرنامج الرقمى لكلتيهما اللحظة المناسبة بالضبط ..

وبدقة آلية ، لاتحتمل الخطأ ، أسقطت الطائرتان قنبلتيهما .. وكانا انفجارين رهيبين ، ارتجت لهما (سيناء) كلها ، من أقصاها إلى أقصاها ..

انفجارين أبادا وأفنيا منطقة الهدف ..

بكل ما عليها ..

ومن عليها ..

* * *

انتهى الجزء الأوَّل بحمد الله

ويليه الجزء الثانى بإذن الله

(الخطر الجاف)